الباب الثاني

آراء القاسمي الكلامية

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الإلهيات.

الفصل الثاني: في النبوات.

الفصل الثالث: في السمعيات.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الإلهيات عند القاسمي

ويشتمل على تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول: منهج علماء الكلام في الاستدلال على وجود الله.

المبحث الثاني: منهج القاسمي في الاستدلال على وجود الله.

المبحث الثالث: في إثبات الصفات إجمالاً ومنهج القاسمي في ذلك.

المبحث الرابع: في الصفات الخبرية ومنهجه فيها.

المبحث الخامس: في إثبات صفة الكلام ومنهجه فيها.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الاستدلال على وجود الله

ويشتمل على:

١- تمهيد.

٢- منهج علماء الكلام في الاستدلال على وجود الله.

٣- تعقيب.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

لقد درج العلماء في الاستدلال على وجود الله تعالى مدارج كثيرة، وكل من المتكلمين والصوفية والفلاسفة حاول الاستدلال على وجوده تعالى، وكانت قوة دليل كل منهم مرتبطة بالداعي إليه.

ولم ينكر وجود الخالق إلا شرذمة من الملاحدة ومن على شاكلتهم، وهؤلاء لا يستندون إلى دليل في دعواهم، اللهم إلا المكابرة والجحود والإنكار، فبعضهم يرى أن العالم في الأصل جزئيات متفرقة تتحرك على غير استقامة، واجتمعت إلى بعضها بطريقة المصادفة، فحصل عنها العالم بالشكل الذي نراه(١).

ومثل هذا الإضراب في الفكر يجعل الاستدلال على وجود الله أمرًا بالغ الأهمية ؛إذ يوحي بأن هناك من البشر من لا علاقة لهم بعالم السماء ولا يعرفون شيئًا عن خالقهم، وهؤلاء قد انشغلوا بملذات الحياة وجعلوا الحصول عليها غاية الغايات، ولم ينظروا مرة إلى أنفسهم أو إلى الكون ﴿ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى، وفي هذا نسيان لإنسانيته، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذه المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية ولا ينظر فيما تقدم لها في الغداة من رصيد(٢).

---

(1) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني، تحرير وتصحيح الفرد جيوم صـ١٢٣، مكتبة المثنى بتصرف.

(2) في ظلال القرآن تأليف: الشيخ سيد قطب. جـ٦، صـ٣٥٣١، طبعة: دار الشروق، ط١٢، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ووجود هذه الأصناف دفع العلماء لإقامة الأدلة على وجوده تعالى إحقاقًا لقدر الربوبية ووفاءً لعظمتها واستجابة للاستشعار بحاجة الإنسان إلى الوجود الإلهي من بداية خلقه ورجعته، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، فإذا كنا نحتاج إلى الله تعالى في جميع شئوننا، وجميع حوائجنا مرفوعة إليه فيكون وجود الله لنا ضرورة ولسنا نحن ضرورة له، فلا غنى للكائن عن المكون ولا للمحتاج على الغني، وما دام الله غير محتاج في ذاته ووجوده إلى أحد وغير مفتقر إلى عبادة عابد، فإن الاستدلال على وجوده ووحدانيته لا يحقق الوجود الذاتي له -جل جلاله- كما لا يدعم الوحدانية لله بقدر ما يشبع حاجة الإنسان الحقيقية في الافتقار دائمًا إلى واحد يستجيب بمحض فضله لمطالب العبيد ويتولى أمورهم، فالاستدلال إذًا من هذه الاعتبارات راحة للمستدل وبني جنسه المقرين بالألوهية، ومحاولة لجذب المفكرين إلى ساحة الاعتراف والإيمان كي ينعموا بهذا اليقين في رحاب إله واحد وسعت رحمته كل شيء، وهو أيضًا تعبد لمن يقوم بصياغة الدليل عن طريق التأمل والتدبر والنظر[1].

(1) «الألوهية في الفكر الإسلامي» تأليف الدكتور/ عبد الله بن يوسف الشاذلي، صـ٧٣، ٧٤، طبعة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. بتصرف.

المبحث الأول

الاستدلال على وجود الله

منهج علماء الكلام في الاستدلال على وجود الله:

أولاً: بخريق المتكلمين:

سلك المتكلمون في الاستدلال على وجود الله تعالى مسلك الجواهر والأعراض، إذ أنهم استدلوا بحدوثها وإمكانها وجعلوه دليلاً على حدوث العالم، وفي يقول الرازي الأشعري: «قد عرفت أن العالم إما جواهر وإما أعراض، وقد يستدل بكل واحد منهما على وجود الصانع، إما بإمكان أو حدوثه فهذه وجوه أربعة؛ فالأول: الاستدلال بحدوث الأجسام وهو طريقة الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦][(١)]، وقد سبق المعتزلة[(٢)] والماتريدية[(٣)]، الأشاعرة في استخدام هذا الطريق».

وقد شرح الأشاعرة حدوث الجواهر والأعراض[(٤)]، فقالوا: إن العالم

---

(1) "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء المتكلمين» للإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، وبذيله كتاب «تلخيص المحصل" للعلامة نصر الدين الطوسي صـ١٤٧، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

(2) «الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تعليق الإمام/ أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق د/ عبد الكريم عثمان صـ٩٢، مكتبة وهبة الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٥م.

(3) «منهاج الأدلة في عقائد الملة» لابن رشد مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام، تقديم وتحقيق د/ محمود قاسم صـ٢٠، ٢١، مكتبة الأنجلو المصرية ط سنة ١٩٥٥م.

(4) الجوهر: هو ما قام بنفسه؛ أي: الذات والجسم الذي يشغل حيزًا من الفراغ.

والعرض: هو الصفة التي تعرض للذوات أو هو الذي يمكن فيه أن يوجد لشيء واحد بعينه وألا يوجد.

«المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد» تأليف د/ نشأت عبد الجواد ضيف صـ٢٨٥، نقلاً عن «توضيح التوحيد» الجزء الأول صـ٥٣، إيساغوجي لغرفويوس، بقلم د/ أحمد =

ينقسم إلى جواهر وأعراض ولا يخرج عنهما، والأعراض حادثة، والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن كحركة الجسم بعد سكونه، وهذا حادث بالمشاهدة، والسكون حادث أيضًا؛ لأنه ينعدم بعد الحركة، ولو كان قديمًا لاستحال عليه العدم، وبذلك ثبت حدوث الأعراض بالمشاهدة.

والجواهر كذلك حادثة؛ لأنها لا تخلو عن الحوادث، إذ أنها لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان، فالجواهر لا تخلو عن الحوادث، وأما القول بأن ما لا يخلو عن الحوادث حادث فلأن الجواهر التي لا تخلو عن الحوادث إما أن تكون موجودة معها أو بعدها، والموجود مع الحادث أو بعده لا بد أن يكون حادثًا(١).

وأما الدليل على إمكان الجواهر فيكون بتركيبها من أجزاء، والواجب لا يتركب من أجزاء ولا يتعدد، فهي إذًا ممكنة والممكن: ما استوى طرفاه وجودًا وعدمًا، ولا بد لوجوده من علة مؤثرة فيه، وفي ذلك يقول صاحب شرح المواقف: «الاستدلال بإمكانها: وهو أن العالم الجوهري ممكن؛ لأنه مركب من الجواهر الفردية إن كان جسمًا وكثيرًا: إن كان جسمًا، أو جوهرًا فردًا، والواجب لا تركب فيه ولا كثرة، بل هو احد حقيقي ؛ وكل ممكن؛ فله علة مؤثرة»(٢).

وأما الدليل على إمكان الأعراض فهو: «أن الأجسام متفقة في الحقيقة

=

فؤاد الأهواني، صـ٨٢، نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

(1) الوحدانية مع دراسة الأديان والفرق، د/ بركات عبد الفتاح دويدار صـ٣٤٩، ٣٥٠، طبعة: النهضة المصرية، سنة ١٩٧٧م.

(2) «شرح المواقف في علم الكلام» للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، الموقف الخامس في الإلهيات، تحقيق د/ أحمد المهدي صـ٦، نشر مكتبة الأزهر.

لتركبها من الجواهر المتجانسة، فلا يكون اختصاص كل جسم بما له من الصفات الذاتية من غير احتياج إلى مخصص خارجي؛ لأن اختصاص كل جسم بما له من الصفات أمر ممكن فلا بد له في التخصص بهذه الصفات دون غيرها من مخصص»[١].

وكانت النتيجة من كل هذه المقدمات هي الاستدلال على وجود الله بحدوث العالم، واحتياج الحادث إلى المحدث أمر بدهي، وفي ذلك يقول الغزالي: «فنحصل من هذا أن العالم يخلو عن الحوادث، فهو إذًا حادث، وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة»[٢].

هذه هي طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله تعالى، ومع أن النتيجة التي توصلوا إليها سلمت لهم، إلا أن الطريقة لم تسلم لهم؛ لأن هذه الطريقة نقدها علماء كثيرون على رأسهم الشيخ/ أبو الحسن الأشعري[٣] في

---

(1) «دراسات في العقيدة الإسلامية» تأليف د/ إبراهيم عبد الله الحصري صـ١١٤، سنة ١٩٩٣، ١٩٩٤م.

(2) قواعد العقائد لحجة الإسلام الإمام/ أبي حامد الغزالي، إعداد/ رءوف شلبي وموسى محمد علي صـ٨٩، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثانية، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

(3) أبو الحسن الأشعري: العلامة إمام المتكلمين، أبو الحسن علي بن علي إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني البصري.

ولد سنة ٢٦٠هـ، وقيل: ٢٧٠هـ.

قال أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى نشأ الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم، وعن الباقلاني: أفضل أحوالي أن أفهم كلام الأشعري.

قال الذهبي: كان لأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله أشياء حسن وتصانيف =

رسالته إلى أهل الثغر، حيث صرح بأن طريقة المتكلمين هذه بدعة وانحراف عن دين الأنبياء[١]، وبمثل هذا القول ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» إذ قال: بأن هذه الطريقة التي استدل بها المتكلمون لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا على لسان أصحابه، ولو كانت واردة عنهم لكنا مأمورين باتباعها في الاستدلال على وجوده تعالى، ويعجب ابن تيمية من ذكر المتكلمين بأن هذه الطريقة هي طريقة الخليل ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ إذ أنهم استدلوا بتحرك الشمس والقمر والكواكب على حدوثهم، وظنوا أن قول الخليل [هذا ربي] أراد به خالق السماوات والأرض القديم الأزلي، وأن الخليل رأى حدوث هذه الأشياء من حركتها، وقد خطَّأ ابن تيمية هذا الزعم ورده بوجوه:

=

جمة، تقضي له بسعة علم، وله كتب عديدة منها: الإبانة في أصول علم الديانة، واللمع... وغيرها الكثير.

توفي سنة ٣٣٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١٥، صـ٨٥ -تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ١/ صـ٣٤٦، الأنساب جـ١/ صـ٢٧٣.

(1) أصول أهل السنة والجماعة المسماة بـ«رسالة أهل الثغر» لأبي الحسن الأشعري، تحقيق د/ محمد السيد الجليند صـ٥٥، نشر مطبعة التقدم سنة ١٩٨٧م.

(2) ابن تيمية: إمام الأئمة ومفتي الأمة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين بن أبي المحاسن عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السلام... ابن تيمية الحراني، نزيل دمشق، ولد يوم الاثنين ١٠ربيع الأول سنة ٦٦١هـ بمدينة حيراني، واصل ليله مع نهاره في سماع العلم حتى ذاع صيته بين العلماء ورفع الله به الدين، وجاهد ضد التتار، وهو صاحب الفتاوى المشهورة، توفي سنة ٧٢٩هـ وحضر جنازته جميع أهل دمشق وعدت جنازته أكبر جنازة في الإسلام بعد جنازة الإمام أحمد بن حنبل. ينظر: ذيل طبقات الحنابلة جـ٢، صـ٤٠٣، والأعلام العلية في مناقب ابن تيمية صـ٢٢.

الأول: أن قوم إبراهيم كانوا مقرين بوجود الصانع ولكنهم أشركوا معه غيره، فإبراهيم عليه السلام لم يستدل بهذه الآية على إثبات الصانع، وإنما استدل بها على نفي مزاعمهم، وكان وجه استدلاله أن مغيب هذه الأشياء يجعلها لا تصلح لأن تكون معبودة من دون الله ؛ إذ أن من يستحق العبادة لا يغيب عن خاطر عابده في جميع الأحيان.

الثاني: لو كان مراد إبراهيم بقوله: [هذا ربي] أنه رب العالمين لكان هذا حجة عليهم لا لهم؛ لأنه بذلك يجيز أن يكون الإله متحركًا، هذه الحركة التي هي دليل الحدوث عندهم، لكنه قصد نفي إشراك هذه الأشياء مع الله في الربوبية، ولو كان يقصد نفي ربوبيتها بالحركة لكن أجدر به أن ينفيها من حين بزوغها.

الثالث: إن الأفول في اللغة العربية يعني المغيب والاحتجاب، وليس بمعنى الحركة والانتقال -كما يقول المتكلمون- ولا يقول أحد لا من أهل اللغة ولا من أهل التفسير: إن الشمس والقمر في حالة سيرهما فى السماء أنها آفلان، ولا يقول للكواكب المرئية في السماء في حال ظهورها وجريانها إنا آفلة، ولا يقول عاقل لكل من مشى وسافر إنه آفل[1].

وبالرغم من أن ابن تيمية اتفق معهم في النتيجة إلا أن رفضه للطريقة التي ساقها المتكلمون بدا واضحًا من خلال نقده لها، وابن تيمية جعل قصة الخليل عليه السلام دليلاً على وحدانية الله، وهذه المآخذ في نصوصها محكمة لا أجد فيها فرصة للرد عليها.

---

(1) «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» لابن تيمية بهامش كتاب منهاج السنة النبوية جـ١، صـ١٩١، ١٩٢، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وهناك أيضًا من الباحثين من نحا هذا النحو[١]، وهاجم هذه الطريقة أمثال الدكتور/ محمد السيد الجليند، إذ يقول: «لو افترضنا صحة هذه الطريقة عقلاً، فإن أحدًا من الأنبياء لم يدع أمته بهذه الطريقة، وأكثر العقلاء عرفوا ربهم وآمنوا برسله وبكتبه ولم يخطر بأذهانهم طريقة المتكلمين في الاستدلال، بل إن هذه الطريقة تقلب الأمور رأسًا على عقب، فبدلاً من أن يقولوا بأن خلق الإنسان وحدوثه بعد أن لم يكن كافٍ في الاستدلال على وجود الله لبداهته ووضوحه لكل العقول، صرفوا أنفسهم عن ذلك وجعلوا حدوث الإنسان بعد أن لم يكن أمرًا غامضًا، فأخذوا يستدلون عليه بطريقة الأعراض وحدوثها، فجعلوا حدوث الأعراض أكثر بداهة وأوضح للعقول من حدوث الإنسان بعد أن لم يكن، وهذا قلب للأمور»[٢].

ومن الإنصاف أن نقول: إن ما رأيناه من ابن تيمية وغيره من العلماء هو وضع للنصوص في مواضعها من خلال النظرة المتأنية إلى النص، ولكن الأولى ألا نقسوا على المتكلمين؛ إذ أن طريقتهم هذه كانت «وليدة النقاش، وهم ما أقاموا علم الكلام إلا لإثبات العقائد الدينية على الغير، وأما تحصيل العقيدة فإنه يكون من الكتاب والسنة»[٣]، ذلك أن المتكلمين وجدوا في وقت ساد فيه الأسلوب المنطقي في الحوار، وشاع فيه الحديث الفلسفي فاضطروا إلى سوق

(1) «مناهج الأدلة في عقائد الملة» صـ١٨، ٢٧، ٢٨ -دراسات في العقيدة الإسلامية تأليف د/ محمد عبد الله الشرقاوي صـ٨٢، ٨٣، نشر مكتبة الزهراء، طبعة سنة ١٩٨٩م.

(2) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، تأليف د/ محمد السيد الجليند صـ٢١٩ طبعة مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. -وينظر كذلك أصول أهل السنة والجماعة لأبي الحسن الأشعري صـ٥٥، ٥٦، ٥٧.

(3) الوحدانية مع دراسة في الأديان والفرق، تأليف د/ بركات عبد الفتاح دويدار صـ٣٦٢ نشر دار النهضة المصرية.

الدليل بمثل هذه الصورة لكي يصلوا إلى إقناع الغير وإلزامه بالعقيدة الإسلامية[١].

ويتضح نبل غايتهم وشرف مقصدهم في أنهم صاغوا في استدلالهم أن هذا الكون بكل ما فيه يحتاج إلى موجود، ورأوا أن في ذلك إثبات ملزم لوجود الله تعالى.

وإنصافًا للمتكلمين يقول الدكتور بركات دويدار: «إنهم لم يهملوا ما جاء له في القرآن، ومراجعة التفاسير التي كتبها المتكلمون يكشف عن هذا، ولنضرب مثلاً لذلك بتفسير «الكشاف» للزمخشري[٢] -معتزلي-».

و«التفسير الكبير» للرازي[٣] -أشعري- ففي هذين التفسيرين نجد

---

(1) المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد، تأليف د/ نشأت عبد الجواد ضيف صـ٨٣ بتصرف.

(2) الزمخشري: العلامة كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمود الزمخشري الخوارزمي، النحوي، صاحب الكشاف والمفصل وأساس البلاغة والفائق في غريب الحديث... وغيرها كثير.
ولد بزمخشر، قرية من عمل خوارزم، في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، كان رأسًا في البلاغة والعربية، والمعاني والبيان، وله نظم جيد.
سير أعلام النبلاء جـ٢٠، صـ١٥١ -وفيات الأعيان جـ٥ صـ١٦٩ -معجم الأدباء جـ١٩ صـ١١٢٧.

(3) الرازي: مؤلف التفسير، الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي، البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي.
ولد سنة ٥٤٤هـ، وكان فريد عصره ومتكلم زمانه، له مفاتيح الغيب والمطالب العالية والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان و... غيرها، توفي عليه رحمة الله تعالى سنة ٦٠٦هـ.

=

الوقوف بإخلاص عند كل آية تدعو إلى التأمل في حكمة الله وأنه لم يخلق شيئًا عبثًا، ولكن كثرة الجدل كانت هي السبب في هذه المسائل التي امتلأت بها كتب علم الكلام، وربما لو عشنا أحوالهم لقلنا ما قالوا[١].

ثانيًا: طريقة الفلاسفة:

للفلاسفة أدلة كثيرة على وجود الله تعالى منها:

١- دليل الإمكان. ٢- دليل العناية. ٣- دليل الاختراع.

١- دليل الإمكان: يرى الفلاسفة أنه لا شك في وجود موجود، وهذا الموجود إما أن يكون واجبًا أو ممكنًا، والممكن لا بد له من علة ترجح وجوده على عدمه، وهذه العلة المرجحة إما أن تكون ممكنة أو واجبة الوجود لذاتها، فإن كانت واجبة الوجود لنفسها ثبت إذًا وجود واجب الوجود، وهو الله تعالى، وإن كانت ممكنة كان معنى هذا وجود سلسلة من الممكنات تحتاج إلى علة، ومحال أن تكون العلة ممكنة وإلا صار كل ممكن علة ومعلولاً في آن واحد، ومحال كذلك أن تكون العلة جزءًا من الممكنات وهو ترجيح بلا مرجح.

وفي ذلك يقول ابن سينا[٢] مبينًا كيفية دلالة الوجود على الله: «لا شك أن

=

ينظر وفيات الأعيان جـ٧ صـ٢٦٥- ٢٦٨، شذرات الذهب ج٥ صـ٢١.

(1) الوحدانية د/ دويدار صـ٣٦٨.

(2) هو أبو علي الحسين بن عبد الله الحسن بن علي بن سينا الشهير بالرئيس.

ولد ببخارى سنة ٣٧٠هـ، وتوفي بهمدان سنة ٤٢٨هـ.

صاحب التصانيف العديدة مثل: الإشارات والتنبيهات وتأويل الرؤيا وتفسير آية النور وكتاب المبدأ والمعاد، وله ترجمة وافرة في طبقات الأطباء.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف العلامة/ المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطي المعروف بحاجي خليفة، المجلد الخامس صـ٣٠٨، ٣٠٩، نشر دار الفكر، طبعة سنة ١٩٨٢م. -وكتاب دراسات في الفلسفة الإسلامية تأليف د/ عبد الحميد عبد

=

هناك وجودًا وكل وجود فإما واجب وإما ممكن، فإن كان واجبًا فقد صح الواجب، وهو المطلوب، وإن كان ممكنًا فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود...»[١].

٢- دليل الاختراع: يقوم على أصلين:

- **أحدهما**: فطري معروف بنفسه، وهو أن كل هذه الكائنات مخترعة (مخلوقة).

- **ثانيهما**: ضروري بدهي، وهو أن كل مخترَع -بفتح الراء- لا بد له من مخترِع -بكسر الراء- (فاعل له).

ويشير ابن رشد[٢] إلى هذين الأصلين فيقول: «... وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ووجود النبات ووجود السماوات وهذه الطريقة

=

المنعم مدكور صـ١٢٩، نشر مكتبة الزهراء، طبعة سنة ١٩٨٩م، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة صـ٤٣٧.

(1) النحاة لأبي علي بن سينا صـ٢٣٥، طبع الكردي، مصر سنة ١٩٦٣م، وينظر شرح المواقف في علم الكلام، الموقف الخامس صـ٨، وفصوص الحكم لأبي نصر الفارابي مع مجموعة رسائل صـ٦٠، طبع عبد الرحيم المكاوي، مصر سنة ١٩٠٧م.

(2) العلامة فيلسوف الوقت أبو الوليد محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي.

ولد سنة ٥٢٠هـ قبل موت جده بشهر واحد.

قال الأبار: لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً، وعلمًا، وفضلاً، وكان متواضعًا، منخفض الجناح، قيل لم يترك الاشتغال بالعلم منذ عقل إلا ليلتين: ليلة زفافه، وليلة موت أبيه، سوَّد وقيد نحوًا من عشرة آلاف ورقة، وله التصانيف العديدة، توفي -رحمه الله- في صفر سنة ٥٩٥هـ محبوسًا في داره.

ينظر: سير أعلام النبلاء جـ٢١ صـ٣٠٧ -شذرات الذهب جـ٤ صـ٣٢٠ -العبر جـ٤ صـ٢٨٧.

تبنى على أصلين موجودين في جميع فطر الناس...»[١].

٣- دليل العناية: يقوم على دعامتين:

- **الأولى**: حسية عقلية تقوم على النظر في الكون وما فيه من تناسق بين أجزائه وبين الكائنات التي يحتوي عليها، وتكون نتيجة النظر: أن ما في الكون قصد به الإنسان وكل كائن حي.

- **الثانية**: تقوم على أن هذه المخلوقات التي قصد بها بني البشر لم تأت من قبيل المصادفة المحضة، بل لا بد لها من فاعل مختار، ويشير ابن رشد إلى هذا الدليل بقوله: «فأما الطريقة الأولى [دليل العناية] فتبنى على أصلين:

- **أحدهما**: أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان.

- **الثاني**: أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد»[٢].

ثم ذكر ابن رشد أدلة كثيرة من القرآن رأى أن فيها دلالة على الاختراع كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥، ٦، ٧]، وآيات أخرى رأى فيها أن فيها دلالة على العناية مثل قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، ويعتبر ابن رشد أن دليلي الاختراع والعناية هما الطريقة الشرعية التي نبه عليها الكتاب العزيز واعتمدتها الصحابة -رضوان الله عليهم- وفي هذا يقول: «فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده ونبههم على ذلك بما جاء في فطرهم على إدراك هذا

---

(1) الكشف عن منهاج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ضمن مجموعة فلسفية له، مراجعة مصطفى عبد الواحد عمران صـ٦٦، نشر المكتبة المحمودية التجارية سنة ١٩٦٨م.

(2) الكشف عن مناهج الأدلة صـ٦٥.

المعنى»[١].

وهذا الدليل الذي ذكره ابن رشد يعده الدكتور عبد الحليم محمود أنه «لا يزال المحدثون يستخدمونه، ويعده بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله، بل وأقواها، وهو في الوقت نفسه أسهلها بالنسبة الإدراك الإنساني»[٢].

ثالثًا: طريق الصوفية:

طريق الصوفية في الاستدلال على وجود الله تعالى ليس كالطرق السالفة الذكر، وإنما اعتمدوا في ذلك على تصفية النفس الإنسانية، وتحريرها من شهواتها؛ إذ بعد تحقيق ذلك تتكشف الأمور للإنسان ويستطيع أن يرى كل الحقائق المستورة طبقًا لمبدئهم العام في طريق المعرفة، ولم يكن ذلك بنظم دليل أو ترتيب كلام، بل نور يقذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر العارفين.

وفي تقرير ذلك يقول الإمام الغزالي[٣]: «فمن ظن أن الكشف موقوف

---

(1) الكشف عن مناهج الأدلة صـ٦٨، ونظر أيضًا القرآن والفلسفة د/ محمد يوسف موسى صـ١٨، نشر دار المعارف الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م؛ إذ يقول: «وهذا الدليل [دليل العناية] يرينا مقدار عناية الله الفائقة البالغة بالعالم الذي خلقه، فجعله على نظام عجيب وارتباط قام بين أجزائه، وذلك ما يدركه تمامًا علماء الفلك والمتخصصون في علوم الحياة على تنوعها واختلاف فروعها، ومن ثم نصل إلى أن هذا العلام لم يخلق عبثًا وأنه من صنع إله حكيم عليم الإرادة والقدرة».

(2) التفكير الفلسفي في الإسلام للإمام عبد الحليم محمود صـ٥١، نشر دار المعارف، طبعة سنة ١٩٨٤م.

(3) الغزالي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي.

قال إمام الحرمين: الغزالي بحر مغرق وإلكيا أسد مطرق والخوافي نار تحرق، وله التصانيف العديدة، منها: الإحياء، والاقتصاد في الاعتقاد، و... غيره الكثير، توفي يوم

على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة»[١].

ويقول أيضًا: «وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة ولطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية»[٢].

وهناك آيات كثيرة يحتج بها الصوفية في تصحيح هذا الطريق، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذا الطريق قد هاجمه بعض العلماء كابن رشد -رحمه الله- إذ يقول: «إن هذه الطريقة -وإن سلمنا بوجودها- فإنها ليست عامة للناس بما هم ناس، ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ولكان وجودها بالناس عبثًا، والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طريقة النظر»[٣].

=

الاثنين ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٠٥هـ.

ينظر: سير أعلام النبلاء جـ١٩ صـ٣٢٢، المنتظم جـ٩ صـ١٦٨، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد صـ٣٧-٣٨.

(1) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، تحقيق د/ عبد الحليم محمود صـ٩١، نشر دار الكتب الحديثة طـ٨ سنة ١٩٧٤م، وينظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام فخر الدين الرازي، مراجعة وتحرير د/ علي سامي النشار صـ١، ٧٢، مكتبة النهضة المصرية طبعة أولى سنة ١٩٣٨م.

(2) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي مع مقدمة في التصوف د/ بدوي طبانة صـ١٨، طبعة إحياء الكتب العربية طـ٣.

(3) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد صـ٦٣.

وممن نحا هذا النحو في نقد طريقة المتصوفة الدكتور محمود قاسم ؛ إذ يقول: «وسلك المتصوفة منهجًا لا يعتمد على أسس منطقية؛ لأنهم لا يستدلون على وجود الله بمقدمات بديهية تستنبط من الواقع وتفضي إلى نتائج مقنعة... ثم ذكر الأدلة التي اعتمدوا عليها، ثم قال: أما النصوص الأخرى التي تحث على النظر العقلي، وهي تشغل جزءًا كبيرًا من القرآن، فمروا بها دون أن يقفوا عندها لكي يتأملوها مع أنها أكثر صراحة مما استشهدوا به، ونسي هؤلاء أن منهجهم الذي يوصون به يفوق مستوى الإنسان عادة»(١).

تعقيب:

هذه هي طرق الاستدلال على وجود الله تعالى، ومع أن أصحابها قد اتفقوا في النتيجة كما أشرت سابقًا، ولكني أرى أن دليلي العناية والاختراع هما أولى الأدلة على وجود الله تعالى؛ نظرًا لصلتهما القوية بالقرآن الكريم، فمفهوها قائم على ما جاء به الكتاب العزيز، كما أن دلالتهما واضحة، وعبارتهما سهلة، وقد كادا أن يكونا دليلاً واحدًا.

يقول الدكتور/ عوض الله حجازي: «ولقد ذهب بعض العلماء من الفلاسفة وغيرهم إلى الاستدلال على وجود الله بدليل سهل العبارة واضح الدلالة، ميسور الفهم على العاقل ويسمى هذا دليل الاختراع أو الإبداع، أو دليل العناية»(٢).

والذي دعاني إلى تقديم هذا الطريق أمور:

١- وصف بعض علماء الأشاعرة لدليلهم بأن فيه مؤنات كثيرة، إذ ورد

---

(1) مقدمة د/ محمود قاسم لمناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد صـ٢٣، ٢٤ طبعة سنة ١٩٥٥م.

(2) دراسات في العقيدة الإسلامية، تأليف د/ عوض الله حجازي صـ٣٧، طبعة أولى سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

في شرح المواقف عقب الانتهاء من مسلك الحكماء «أن في هذا المسلك طرح لمؤنات كثيرة كانت في المسلك الأول من بيان حدوث العالم، وإمكانه، وما يتوجه عليه من الأسئلة والأجوبة عنها، فإنها سقطت هاهنا»[١].

٢- ما في طريق المتكلمين من غموض في العبارة مما يجعل الأمر غير واضح بالصورة التي يجب أن يكون عليها طريقة الاستدلال على وجود الله تعالى، يقول الدكتور محمود قاسم: «إن هذا الدليل يمتاز عن أدلة الأشاعرة بأنه يدعو إلى المعرفة الصحيحة لا إلى الجدل العقيم، فهو يحفز إلى التعمق في البحث والكشف عن أسرار الكون دون أن يثير شبهات أو مشاكل»[٢].

٣- ما ظهر في طريقة الصوفية من أنها لا تصلح لجميع الناس، وأن صفاء النفس البشرية لا يكون سهلاً لأي أحد، وقد أشرت فيما سبق على ذلك بما ورد في مناهج الأدلة.

٤- إن هذا الدليل صالح لمخاطبة جميع العقول على حد سواء، فهو صالح للعامة التي تشاهد وجود الغايات في المخلوقات، وصالح للعلماء الذين كلما زادوا تبحرًا في العلوم زاد إيمانهم بوجود حكمة وعناية إلهية في جميع الظواهر الطبيعية، إضافة إلى أنه برهان ديني استخدمه القرآن في كثير من آياته[٣].

وأخيرًا لا ينبغي أن نجعل سعي العلماء في الاستدلال على وجود الله ضربًا من الهباء المنثور، بل نلمس العذر لكل من اضطرته أحوال عصره إلى الإتيان بطريقة يلزم بها الناس ويعلمهم بوجود الله تعالى.

---

(1) شرح المواقف صـ٨.

(2) مقدمة د/ محمود قاسم لمناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد صـ٢٦، طبعة سنة ١٩٥٥م.

(3) الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد، تأليف د/ محمود قاسم صـ٨١، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، بتصرف.

المبحث الثاني

منهج القاسمي في الاستدلال على وجود الله

ويشتمل على:

تمهيد:

١- **الدليل الأول**: (دليل الفطرة) والتعقيب عليه.

٢- **الدليل الثاني**: (دليل نظام الأكوان وما فيه من الإحكام والإتقان) والتعقيب عليه.

٣- **الدليل الثالث**: (أخذ العقل السليم في الخشية والإشفاق والخروج من الحيرة) والتعقيب عليه.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

يرى القاسمي أن معرفة الله تعالى أولى الواجبات التي ينبغي على المكلف معرفتها، وفي سوقه للأدلة على وجود الله تعالى ذهب ينتقي من درر الحكماء المحققين، ومما اشتقه الفكر من غرر ذوي الألباب، وقد جمع أدلة كثيرة على وجود الله تعالى، وفي ذلك يقول: «اعلم أن البراهين في هذا المقام تفوق الحصر[١]، وتفوق السَّبْرُ[٢]، كما قيل: إن لله طرائق -أي للاستدلال عليه- بعدد أنفاس الخلائق».

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[٣]

وسأتناول ثلاثة منها أعرض فيها ما أراه إن شاء الله تعالى:

---

(1) لا شيء يفوق الحصر سوى علمه تعالى ومعلوماته وكماله وكمالاته ونعيم الجنة وعذاب النار للكفرة، وربما أراد القاسمي بقوله ذلك اعتبار مخلوقات الله وأفعاله الدالة على وجود الله تعالى وهي تفوق الحصر.

(2) السَّبْرُ: التجربة... وهي استخراج كنه الأمر. ينظر: لسان العرب لابن منظور المجلد الثالث صـ١٩١٩، طبع دار المعارف سنة ١٩٧٩، وفي التعريفات للجرجاني: السبر والتقسيم: هو حصر الأوصاف في الأصل وإلغاء بعض ليتعين الباقي للعلية، ينظر: التعريفات للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ويليها رسالة في بيان اصطلاحات رئيس الصوفية سيدي محي الدين بن عربي الواردة في كتابه الفتوحات المكية صـ١٠٣، طبع مصطفى الباب الحلبي سنة ١٣٥٧/ ١٩٣٨م.

(3) دلائل التوحيد للشيخ محمد جمال الدين القاسمي صـ٢٢، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت طـ١، سنة ١٩٨٤م، والبيت في ديوان أبي العتاهية صـ١٢٢، نشر دار صادر، بيروت، طبع سنة ١٩٨٠م.

الدليل الأول
برهان الفطرة[١]

صدَّر القاسمي أدلته على وجود الله تعالى بـ«برهان الفطرة» جريًا على عادة المؤلفين الذين يؤثرون هذا الدليل على غيره ويصدرون به مؤلفاتهم.

وفي هذا البرهان يرى القاسمي أن الشعور بوجود الله تعالى أمر غرزي[٢]

---

(1) المقصود بالفطرة: الطبيعة السليمة التي لم تُشَبْ بعيب، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾، وهي في اصطلاح الفلاسفة: استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، ينظر المعجم الوسيط جـ٢، صـ٧٢٠، يقول القاسمي: إنما جعلنا الفطرة برهانًا مع أنها ضرورية؛ لأنا نعني بالبرهان هنا كل قاطع محتج به، والضروري وإن لم يبرهن عليه فإنه يبرهن به ويشار إليه، ينظر دلائل التوحيد صـ٢٢.

(2) قد يسأل سائل فيقول: إذا كانت الفطرة ناطقة بوجود الله تعالى فلم استدل المتكلمون وغيرهم على وجود الله تعالى؟

والجواب على السؤال: يرى الدكتور محمد بيصار بأنه ما احتاج المفكرون من فلاسفة الإسلام ومتكلميه إلى سوق هذه الأدلة إلا لإزالة ما عساه أن يكون حال بين الناس وفطرتهم السليمة التي فطرهم الله عليها من معوقات أو مغريات تصرفهم عن طبعهم وتنحرف بهم عن فطرهم، ويفسر هذا الكلام د/ سعد الدين صالح فيقول: «إن الفطرة قد تنحرف لأسباب منها اتباع الظن والهوى والشيطان، والتقليد الجاهل للأجداد والآباء، والطاعة العمياء للسادة والكبراء، والغفلة واتباع الشهوات والسير وراء الملذات، والغرور والعناد واللجاج، وحب الدنيا وعدم الخوف من عذاب الآخرة، فكل هذه الأسباب ألجأت المفكرين إلى إثبات وجود الله تعالى بالبراهين».

ينظر: بحث إثبات العقائد الإسلامية بين النصيين والعقليين للدكتور بيصار ضمن بحوث التوجيه التشريعي في الإسلام جـ٤ صـ٣٠، طبع مجمع البحوث الإسلامية في ضوء العلم الحديث تأليف د/ سعد الدين صالح جـ١ صـ٧٩، ٨٣، طبع ونشر دار الصفاء القاهرة طـ٢، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، وينظر مدخل إلى الاستدلال القرآني

جُبل عليه الإنسان، وعُقد عليه جنانه[١]، وتأثر به لسانه، لا يغيره ريب المرتابين، فلا توجد أمة من الأمم إلا وهي معترفة بوجود الله تعالى وإن كان منهم من انحرف في دينه إلا أن معرفة الله مغروسة في قلوبهم، وهذا الشعور لا يمكن أن يكون وليد عقل بشري؛ لأنه سبق كل تقدم علمي، ولا يمكن للمرء أن ينتزعه من فؤاده ؛ لامتزاجه به امتزاجًا يغلب على كل الوساوس، وما يزعمه زاعم من أن بعض الأمم لم يعرفوا الخالق إنما هو ادعاء باطل.

وليس أدل على رسوخ هذه الفطرة من لجوء الإنسان عند حدوث النوازل إلى الله تعالى والتضرع إليه لدفع الضر الذي لا يدفعه أحد إلا الله تعالى.

وهذا الشعور الذي دفع الإنسان إلى التضرع إليه تعالى أمر لا دخل للإنسان فيه بتقليد ولا نظر، بل هو لازم من لوازم إنسانيته، يسري فيه سريان الدم في الجسد[٢]، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ثم ساق القاسمي نصوصًا كثيرة للعلماء في هذا الدليل «كسراج العقول للقزويني[٣]،

=

تأليف د/ عبد الله يوسف الشاذلي صـ٣٦ طـ١، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(1) الجَنان: بالفتح، القلب، وسمي بذلك لاستتاره في الصدر، وقيل لوعيه الأشياء وجمعه لها، وقيل الجنان: رَوْعُ القلب، وذلك أذهب في الخفاء، ينظر: لسان العرب لابن منظور المجلد الأول صـ٧٠٢.

(2) دلائل التوحيد صـ٢٣، ٥٩، ٦٠، بتصرف.

(3) القزويني: هو الشيخ العلامة البارع، شيخ المعتزلة وفاضلهم، أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني المفسر، نزيل بغداد، ولد سنة ٣٩٣هـ.

قال السمعاني: كان أحد الفضلاء المقدَّمين، جمع التفسير الكبير الذي لم يرَ في التفاسير أكبر منه، ولا أجمع للفوائد، لولا مزجه بالاعتزال، أقام بمصر، وحصل أحمالاً من

=

والذريعة للإمام الراغب الأصفهاني[١]، وربيع الأبرار للزمخشري[٢]».

ومفاد هذه النصوص هو: أن معرفة الله تعالى واجبة؛ لأنها من الأمور التي تصل العقول إليها، مهما اختلفت مللها، وتباعدت أماكنها عن مصادر الدين العلم والدين والرسل -صلوات الله عليهم أجمعين- لم يأتوا ليخبروا الناس بوجود الصانع، وإنما جاءوا ليدعوهم إلى التوحيد، فمعرفة الله تعالى أمر مركوز في الجبلة لا يمنعها عن الاعتراف به إلا معارضتها لسلطان الهوى، فإذا نجحت في مخالفته لم يكن بينها وبين الاعتراف بالله تعالى حجاب، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ويرجع سبب وقوع بعض الناس في الشرك: إما لاعتقادهم في التعدد، وإما لإنكارهم صفات الله الواجبة، وإما لإثباتهم المستحيل منها، وإما لإنكارهم النبوات، أو لغير ذلك.

=

الكتب وحملها إلى بغداد، وكان داعية إلى الاعتزال، توفي -رحمه الله- في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ.

ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١٨ صـ٦١٦، المنتظم جـ٩ صـ٨٩-٩٠، طبقات السبكي جـ٥ صـ١٢١-١٢٢.

(1) الراغب: هو العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين، وله "الذريعة في مكارم الشريعة" " والمفردات في غريب القرآن»... وغيرها الكثير، توفي سنة نيف وخمسمائة.

ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١٨ صـ١٢٠، كشف الظنون جـ١ صـ٣٦، الأعلام جـ٢ صـ٢٥٥.

(2) الزمخشري: سبق ترجمته صـ١٣١.

واستدلال العلماء بالفطرة على وجود الله تعالى إنما هو لقطع أطماع كل من تسول له نفسه لإضلال الناس عن الحق وإيقاعهم في الشرك، فإيقاف الحادث على المحدث أمر لا يحتاج إلا إلى النظر الصحيح، يدل على ذلك الاستفهامات التقريرية التي وردت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [النمل: ٦٤]، وقال: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [النمل: ٦١]، فالله تعالى يقرر الخلق بشيء قد فطرهم عليه، يقول تعالى مصورًا لعهده الأول على الخلق: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فبنوا آدم شهدوا على أنفسهم ولكن الشياطين حولتهم عن هذه الشهادة وأنستهم، يقول القاسمي -رحمه الله- عقب تفسيره لهذه الآية: «... والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة... ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد أنه فطرهم على التوحيد... حتى من خُلِقَ مجنونًا مطبقًا مصطلمًا[(١)]، لا يفهم شيئًا، ما يحلف إلا به، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس، فطرة بالغة»[(٢)]، وينطق بهذا الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم[(٣)] عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في

(1) صلم الرجل صلمًا من باب تعب «استؤصلت أذنه» المصباح المنير جـ١ صـ٤٧٢.

(2) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، تصحيح فؤاد عبد الباقي جـ٧ صـ٢٨٩٧-٢٩٠٣، نشر دار إحياء الكتب العربية، مصر.

(3) هو الإمام الحجة الثبت الحافظ الثقة الصادق أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسن النيسابوري، الحافظ صاحب الصحيح المعروف، تلميذ البخاري، ولد سنة أربع ومائتين.

قال محمد بن بشار: حفاظ الدنيا أربعة: وذكر منهم مسلم بن الحجاج، وقال ابن أبي

خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته**[(١)] **عبدًا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**»[(٢)].

ثم ذكر القاسمي بأن الناس في تذكر هذه الشهادة على ضربين:

ضرب أدركوا حقائقها في خواطرهم فكانوا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها، قال تعالى: ﴿ **لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال: ﴿ **وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾ [ص: ٢٩].

وضرب تركوا أنفسهم في ظلمات الجهل، ولم يكلفوا أنفسهم أن يتذكروا ما سبق من عهد مع الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ** ﴾ [الصافات: ١٣].

=

حاتم: كان مسلم ثقة من الحفاظ، كتب عنه بالري، وسئل عنه أبي فقال: صدوق، توفي عليه رحمه الله في شهر رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور عن بضع وخمسين سنة.

ينظر: السير للذهبي جـ١٢ صـ٥٥٧-٥٨٠، تهذيب الكمال جـ١٠ صـ١٢٦-١٢٨، تاريخ بغداد جـ١٣ صـ١٠٠.

(1) نحلته: أي أعطيته ورزقته.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه «كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها» ضمن حديث طويل باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ينظر: مسلم بشرح النووي جـ١٧ صـ١٩٧، طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها.

ووجه الدلالة في هذا الحديث: «أنهم ظلوا على التوحيد قرونًا، ورد في بعض الروايات أنها عشرة، حتى اجتالتهم الشياطين فأوقعتهم في الشرك، فهذا الجنس البشري عامة، أما الفرد الواحد فإنه يولد على الفطرة لكن أبويه هما اللذان يصرفانه عنها».

ينظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي إعداد د/ صفر بن عبد الرحمن الحوالي، إشراف أ.د/ محمد قطب جـ١ صـ٢٥، نشر مكتبة الطيب، القاهرة سنة ١٤١٧هـ.

obeikandl.com

ثم ختم القاسمي هذا البرهان بقول نقله عن الإمام علي يدل دلالة واضحة على أن وجود الله تعالى مستقر في القلوب، عن علي: «أنه قيل له: هل رأيت ربك؟ قال: أفأعبد ما لا أرى؟ فقيل: كيف تراه؟ قال: لاتدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»(١).

تعقيب:

وضح من عرض هذا الدليل أن وجود الله تعالى أمر مستقر في قلوب الخلائق يهتدي الإنسان إلى معرفة ربه بفطرته، فليس وجوده تعالى من المسائل المعقدة التي يحتاج الإنسان فيها إلى كد الذهن ونصبه، فالرجل الأعرابي عندما سئل عن وجود الله تعالى قال بلسان فطرته: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على وجود العليم الخبير.

وكذلك الجن لما سمعوا القرآن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢].

حتى هدهد سيدنا سليمان -على نبينا وعليه السلام- توصل إلى أن لهذا الكون إلهًا موجودًا يستحق السجود له، غير الشمس التي رأى بلقيس وقومها يسجدون لها من دون الله، ونسب هذا الصنيع بلسان فطرته إلى تحسين الشيطان، فقال تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ

(1) يراجع في ذلك «الذريعة إلى مكارم الشريعة» لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق د/ أبو اليزيد العجمي صـ١٩٩-٢٢٧، نشر دار الوفاء بالمنصورة ودار الصحوة بالقاهرة، طـ١ سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بتصرف، ودلائل التوحيد صـ٢٢-٣٢.

رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٤، ٢٥، ٢٦].

وكذلك نجد علماء الطبيعة يعترفون بوجود الله تعالى بطريق الفطرة، يقول موريس بيدج[١]: «إن الإيمان بوجود الله في الأمور الخاصة التي تنبت في شعور الإنسان وضميره، وتنموا في دائرة خبرته الشخصية»[٢].

«وهذا الفطرة السليمة هي التي يدرك الإنسان بها إدراكًا مباشرًا أن له ربًّا قويًّا يرعاه، وإذا أخفقت هذه الفطرة في ساعات الرخاء فسرعان ما تعود إلى الظهور عند نزول البلاء، وسرعان ما ينكشف المعدن الأصيل للنفس فتعود إلى ربها متضرعة»[٣].

ومما يقوي هذا الدليل تلك الإثباتات العلمية الكثيرة التي بنيت على الفطرة مما لا يدع مجالاً للشك في وجوده تعالى ويفتح الباب لإلزام الملاحدة بوجود الله تعالى، ومثل هذه الأبحاث توجد بكثرة في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم»، وكتاب «تعريف عام بين الإسلام»[٤].

---

(1) د/ موريس بيدج عالم من علماء الطبيعة، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٣٤م، سَجَّل نحو ٣٧ بحثًا معظمها في الرادار، وألف الكثير من الكتب.

(2) الله يتجلى في عصر العلم، المرجع السابق ، تعريف عام بدين الاسلام تأليف الشيخ على طنطاوى ، نشر مطابع دار الوفاء المنصورة ص ١٣ سنة ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م ، تأليف نخبة من العلماء الأمريكان، أشرف على تحريره جون كلوفر، وترجمه إلى العربية د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلق عليه د/ محمد جمال الدين الفندي صـ١٤ نشر مؤسسة الحلي، القاهرة، طـ٣، سنة ١٩٦٨م.

(3) الإيمان الحياة للدكتور/ يوسف القرضاوي صـ٢٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة طـ٩، سنة ١٤١٠هـ، بتصرف.

(4) الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكان، أشرف على تحريره جون كلوفر، وترجمه إلى العربية د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلق عليه د/ محمد جمال الدين الفندي صـ١٤، نشر مؤسسة الحلبي، القاهرة، طـ٣، سنة١٩٦٨م.

وفي نهاية هذا التعقيب أشير إلى أن هذا الدليل الذي استدل به القاسمي قد اعترف به كثير من العلماء منهم بعض المعتزلة، وابن تيمية، وكثير من الصوفية، وبعض المحدثين مثل الشيخ محمد عبه والفيلسوف كارليل، وغيرهم[1].

(1) دراسات في العقيدة الإسلامية، تأليف د/ عوض الله جاد حجازي صـ٢٧-٣٠، طبع دار الطباعة المحمدية، القاهرة، طـ١، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

obeikandl.com

الدليل الثاني

نظام الأكوان

وما فيه من الإحكام والإتقان

في هذا الدليل يثبت القاسمي أن صاحب القلم السليم يرى أنوار الحق تتجلى على كل المظاهر الكونية الناطقة بوجود إله بديع، أحكم صنعها ودبر أمرها، وتوضيح ذلك عند القاسمي: «إن ما نشاهده في هذا الكون من مخلوقات كلها على حالة من الترتيب والإحكام، وسيرها بنظام ترتبط فيه الأسباب بالمسببات، وما نراه من خدمة بعض الموجودات لبعض، كل ذلك يشهد بالضرورة على وجود خالق مريد لها، فهل يمكن أن يتصور منزل صنع بلا صانع؟ فبالضرورة لا بد من وجود صانع رسم صورته وحد حدوده، فما بالنا بالكون الذي هو أعلى وأعظم من صنع البشر»[(١)].

وهناك أدلة أخرى ذكرها القاسمي كانت بمثابة تفصيل لما أجمل في هذا الدليل.

من هذه الأدلة:

١- دليل اضطرار العالم إلى ممسك، والذي يقرر فيه أن الناس اتفقوا على أن العالم كله بما فيه من أرض وسماء وبحار وجبال، معلق في الفضاء، والعقل لا يسلم بأن الشيء الثقيل لا يقف في الهواء إلا بممسك له، وهذا الإمساك الدائم للكون لا يستطيع أحد القيام به إلا الله تعالى، ولا يعقل أن يكون الرياح هي الممسك له؛ لأنها تحتاج إلى من يرسلها ويدبر أمرها، والقرآن قرر هذه الحقيقة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١][(٢)].

---

(1) دلائل التوحيد صـ٥١، بتصرف.

(2) من دلائل التوحيد صـ٤٦، بتصرف.

٢- ومنها دليل الحياة الحيوانية والنباتية على وجه الكرة: فيقرر فيه القاسمي بأن الإنسان نفسه يعلم أن له خالقًا بالضرورة ؛ إذ يستحيل أن يُوجد الإنسان نفسه، وقد زعم بعض الملاحدة أن الحي وجد من المادة، وهذا باطل؛ لأن المادة خالية من الحياة وخاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها والحي لا يولد إلا من حي[(١)].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي توضح ما أجمل ما في هذا الدليل.

تعقيب:

إذا كانت الفطرة السليمة تهتدي بنفسها إلى وجود الله تعالى فكذلك العقل إذا ابتعد عن الهوى والتعصب لأي فكرة فإنه لا بد وأن يصل إلى وجود إله خالق لهذا الكون، وأصح مقام يجد فيه العقل هذه الحقيقة هو مقام النظر والتأمل في الآفاق وفي الأنفس، ولم لا، وقد وعد الله عباده أن يريهم في هذا المقام من الآيات ما يجعلهم يشهدون له بأنه هو الحق خالق هذا الكون وموجده، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ودليل كهذا يدعو الإنسان لكي يقلب بصره في هذا الكون، ويتملى في مشاهده وعجائبه، فيجده آية في التكوين، وهو دليل قرآني، والقرآن يتخذ من آيات النظر في الكون طريقًا لعرض أصول الإيمان، وقد عنى القرآن بالحديث عن هذا الكون وما فيه من الآيات، وقد أحصى بعض العلماء سبعمائة وخمسين آية موضوعها كوني، مما يدل على أهمية النظر في الكون وما فيه، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل يتعدى إلى الأوامر الصريحة بالتفكير والنظر[(٢)]، قال تعالى: ﴿ قُلِ

(1) دلائل التوحيد صـ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤.

(2) كتاب «دراسات في العقيدة الإسلامية» د/ محمد عبد الله الشرقاوي صـ٥٤، نشر مكتبة

﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تخاطب الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم فمن عالم يعمل عقله ومن غير عالم، كل يجد بغيته في هذه الآيات، مما يوضح أن هذا الترتيب والإحكام في الكون من تقدير العليم الحكيم، وما أروع إشارة أحد الأساتذة إلى ذلك ؛ فيقول: «والشمس لا يمكنها أن تخرج عن المدار الذي أمرها الله أن تدور فيه، ولو خرجت زاوية واحدة عن محورها لتحطمت وحطمت الكثير، وكذلك القمر والأرض، وهذا هو ناموس الله في هذا الكون لكل خلق عدا الثقلين، الإنس والجن»(١).

وفي كلام الملاحدة ما يؤكد أن التأمل في الكون دليل على وجود الله، من ذلك ما يقوله الفيلسوف «باسكال»: «إن هذا الصمت الأبدي لذلك الفضاء اللانهائي ليقذف في قلبي روعة ورهبة»، ومنه أيضًا ما يقوله «كانت»: «شيئان يملآن قلبي إعجابًا وإكبارًا يتجددان وينموان كلما أعملت فيهما تأملي: السماء المزدانة بالنجوم من فوقي، وقانون الأخلاق في ضميري»(٢).

=

الزهراء طبعة سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(1) العقيدة وأثرها في بناء الجيل د/ عبد الله عزام صـ٢٩ نشر وتوزيع دار الإسراء، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(2) الدين د/ عبد الله دراز هامش صـ١١٩، نشر وتوزيع دار القلم، الكويت سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الدليل الثالث

أخذ العقل السليم في الخشية والإشفاق والخروج من الحيرة

هذا الدليل هو آخر الأدلة التي ساقها القاسمي لإثبات وجود الله تعالى، وأشار القاسمي إلى أن أصل هذا الدليل وخلاصته تكمن في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٣، ١٤، ١٥][(١)].

وبيان هذا الدليل كما يرى القاسمي هو أخذ ما جاء على ألسنة الرسل -عليهم السلام- من التخويف بالعذاب، والوعيد الأكيد لكل مكذب في الاعتبار حتى تأخذ النفس حذرها، فمما طبعت عليه النفس هو حصول الخوف عند التخويف، فإذا خافت ترددت في موقفها، وبالتالي يجب عليها عقلاً تصديق كل ما غلب الظن بصدقه، وعضدته بالبراهين، وهذه هي إحدى طرق الإقناع التي أشار إليها المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠][(٢)].

---

(1) والتحري في الآية معناها الدقة في طلب الدليل عن معرفة وقصد.

(2) والأسلوب في هذه الآية «أسلوب جدلي يراد به زعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة وإثارة التخويف في نفوسهم والتحرج عن المعنى في التكذيب، ما دام أن القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقًّا... ومن الأحوط إذًا أن يتريثوا في التكذيب قبل التعريض للعاقبة الوخيمة، وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحدًا أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله، ويتبع هذا التذوق بالإيمان، بينما هم الذين جاء القرآن لهم، وبلغتهم، وعلى لسان رجل منهم يستكبرون ويكفرون... =

فيترتب على ذلك الوقوع في الحيرة، وأنفع ما تدفع به هذه الحيرة هو الإسلام؛ إذ أنه ليس هناك ما هو أهدى منه للعقول، وأشفى لما في الصدور، قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾ [القصص: ٤٩]؛ أي: ولا أهدى من الإسلام، فوجب اتباعه، ولو فرضنا بأن الحيرة ملازمة للإسلام فهي لغيره ألزم، والذي لا يقبل الإيمان المبني على البرهان والقرآن، يقبل الكفر بغير ذلك.

ثم انتقل القاسمي إلى بيان أصل وقوع الإنسان في الوساوس، وبين بأن أصله هو عُجْب الإنسان بعلمه وعقله، وأن كل ما لا يعرفه فهو باطل، مع أن الله قال فيه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقد يوصله هذا العجب إلى الكفر، ولا ينبغي أن نجعل الكفر والجفاء برهانًا أو شبه تعارض براهين الحق ؛ إذ أن الكفر يزول بتعرض النفس للشدائد والأهوال، وليس أدل على ذلك مما ذكره الله تعالى وفي شأن قوم سيدنا يونس -عليه وعلى نبينا السلام- وفي شأن فرعون حينا عاين الغرق، وإلى ذلك أشار المولى بقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [ص: ٨].

وقد أشار القاسمي لذلك أيضًا بأبيات لأبي العلاء المعري[1]:

=

فمع أن اليقين الجازم بأن القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم... ويعد هذا الأسلوب واحدًا من أساليب الإقناع في بعض الأحوال».

من كتاب «في ظلال القرآن» جـ٦ صـ٣٢٥٨.

(1) المعري: هو الشيخ العلامة شيخ الآداب أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن أحمد التنوخي المعري، يلقب بالساطع لجماله، ولد سنة ٣٦٣هـ رحل في طلب العلم فبزغ فيه وصنف العديد من الكتب، مرض في آخر عمر، وتوفي سنة ٤٤٩هـ.

ينظر: السير جـ١٨ صـ٢٣، تاريخ بغداد جـ٤ صـ٢٤٠، ٢٤١، ميزان الاعتدال جـ١ صـ١١٢.

إذا كنت من فرط السفاة معطلاً فيا جاحدًا اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلاً وأزعم أن الأمر في يد واحد
فإني رأيت الملحدين تعودهم ندامتهم عند الأكف اللواحد[1]

وفرعون وغيره لو أقيمت لهم أعظم البراهين بدون أن يروا العذاب ما آمنوا، قال الله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤].

والقرآن الكريم به الكثير من الجمع بين الأدلة والوعيد سيما في قصص المعذبين، وتأثير ذلك في القلوب أقوى، وعلى كل فالقرآن يظهر بأن الأمن مع الإيمان بالخالق، والخوف في عدم الإيمان به، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

ثم سرد القاسمي علاجًا للشك نقله عن الإمام أبي حامد الغزالي وضح فيه أنه يمكن معالجة الشاك بعلم يناسب عقله «ويقال له: هل ما جاءت به الرسل وصدقته المعجزات ممكن أو محال؟ فإن قال بأنه محال فهو شخص معتوه[2]، وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال له: لو قال لك شخص مجهول: بأن حية ولغت في طعامك الذي أعددته فهل تأكل منه أو تتركه؟ فيقول: سأتركه لا محالة؛ لأنه إن كذب فلا يفوتني إلا الطعام والصبر عليه، وإن صدق فتفوتني الحياة، فنقول له: يا سبحان الله، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما أُيدوا به

(1) اللزوميات لأبي العلاء المعري، جمعتها جماعة من الأخصائيين صـ٢٤٠، القصيدة رقم ٨٦، طبع ونشر دار الكتب العلمية.

(2) معتوه: من عته عتهًا وعتاهًا وعتاهية؛ أي: نقص عقله من غير مس جنون، المعجم الوسيط جـ٢ صـ٦٠٤، طبع مجمع اللغة العربية، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥م.

من المعجزات وتصديق الحكماء والعلماء لهم، عن صدق رجل واحد مجهول، ربما يكون له غرض فيما يدعيه، وهؤلاء العلماء والحكماء مصدقون بالله واليوم الآخر، إن صدقوا وصدقتهم فزت معهم بالنعيم المقيم، وإن كذبوا وصدقتهم لا يفوتك إلا بعض متاع الدنيا وشهواتها الفانية، فإن كان عاقلاً لا يبقى له توقف إلا ويفضل النعيم الباقي على المتاع الزائل، فلا نسبة بين هذا وذاك»[(١)].

تعقيب:

بعد عرض هذا الدليل كما صوره القاسمي أرى:

أولاً: أن دليلاً كهذا يعد دليلاً خاصًا بالموحدين؛ إذ أن مقدمته الأولى بنيت على أخذ ما جاء على ألسنة الرسل فسيق لكي يحافظ على عقولهم من الشطط عن الحق، ولبيان المخرج إذا تعرضوا لحيرة في أمره بثتها الشياطين داخلهم، وعلاج من وقع منهم في شك.

ثانيًا: أنه من الأحرى ألا يكون هذا الدليل في مصاف الأدلة التي تثبت وجود الله تعالى كما فعل القاسمي؛ إذ أنني وجدت فيه منتهى ما وصلت إليه الأدلة من إظهار الحق والذهاب إلى الإيمان اليقيني الخالص، وبهذا يعد نتيجة للأدلة لا دليلاً منها، ويؤيد هذا ارتباط إحدى مقدماته بالأدلة السابقة، يتضح هذا في قوله: «فكيف إذا جاء الثقة مع ظن صدقه المعجز القاهر، وعضدته البراهين المتقدمة»[(٢)]، وهو يقصد الإشارة إلى الأدلة الكثيرة التي سبقت هذا الدليل.

ثالثًا: كل الأدلة التي ساقها القاسمي لإثبات وجود الله تعالى لا تحتاج إلا إلى عقل سليم، يعرف الحق ويقدره، ويستطيع إنصاف أي مذهب يستحق

---

(1) دلائل التوحيد صـ٦٩-٧٢، بتصرف.

(2) دلائل التوحيد صـ٦٩.

الإنصاف، ولديه من المعرفة ما يعينه على تفهم هذه الأدلة، فإن تعارض ما هو عليه مع ما أثبتته هذه الأدلة أذعن للحق، وقبله ومن كان فاسد العقل ضعيف القريحة، فهذا لا تجدي مع الأدلة وإذا عرفها ضيعها، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

رابعًا: لاحظت من خلال عرض القاسمي لأدلته على وجود الله تعالى أنه اعتمد على أدلة كثيرة، وسار في هذه الأدلة مخاطبًا جميع الناس على اختلاف أحوالهم، فساق أدلة عقلية نظرًا؛ لأن من الناس من لديه القدرة على النظر في الأدلة العقلية، ومنهم من لا يتقبل عقله ويعتمد على ما يراه بحواسه، فساق لذلك ما يناسبه، ومنه منهم أصحاب قلوب سليمة يتوصلون بها إلى خالقهم، فساق لذلك أيضًا ما يناسبهم، وهو في ذلك متبع لأسلوب القرآن الكريم في مخاطبة الناس على اختلاف أحوالهم[1].

(1) «في الفكر الإسلامي الحديث والتحديات المعاصرة» د/ عبد المقصود عبد الغني صـ١٩٢، ١٩٣، طبع المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، نشر مكتبة الزهراء سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

إثبات الصفات إجمالاً

ويشتمل على:

١- تمهيد.

٢- آراء أشهر الفرق الكلامية في الصفات.

٣- رأي القاسمي في الصفات.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

كان حال الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- هو التسليم بما جاء في كتاب الله تعالى وبما جاء به سنة نبيه ﷺ من صفات الله ﷻ من غير أن يشبهوه بخلقه، أو يعطلوا صفاته، وقد بين المقريزي ذلك فقال: «من أمعن النظر في دواوين الحديث، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة -رضي الله عنهم- على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك فسكتوا عن الكلام في الصفات، ولا فَرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات[١] أو صفة فعل[٢]، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية، من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والجود، والإنعام، والعزة، والعظمة، وساقوا الكلام سوقًا واحدًا، وهكذا أثبتوا -رضي الله عنهم- بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض أحد منهم إلى شيء من هذه، ورأوا بأجمعهم إجراءات الصفات كما وردت»[٣]، وكذلك كان الحال لدى كبار الأئمة أمثال أبي حنيفة[٤]،

---

(1) الصفات الذاتية: هي ما يوصف الله بها ولا يوصف بضدها، نحو القدرة والعزة والعظمة وغيرها.

(2) الصفات الفعلية: هي ما يجوز أن يوصف الله تعالى بضده كالرضا والسخط والغضب... ونحوها، ينظر: «التعريفات» تأليف السيد علي بن محمد الجرجاني صـ١١٧، طبع ونشر مصطفى البابي الحلبي، مصر، سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

(3) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تأليف أحمد بن علي المقريزي جـ٢ صـ٣٥٧ نشر دار صادر، بيروت.

(4) أبو حنيفة: هو إمام العراق وفقيهها النعمان بن ثابت التيمي، كان إمامًا ورعًا، عالمًا عاملاً =

ومالك[١]، والشافعي[٢]، وأحمد[٣]، إذا كان رائدهم في ذلك هو التوحيد الخالص، وتنزيه المولى ﷻ هو الفكرة الأساسية التي تحدد فهمهم لعقائد الدين[٤]، وما لبث الحال إلا وتغير وأصبحت مسألة الصفات من المسائل التي اضطربت فيها أقوال العلماء، وانقسموا تجاهها إلى أقاسم، لذا أردت أن أبين آراء الفرق الكلامية في المسألة ثم أعقبه برأي القاسمي.

=

متعبدًا، قال عنه الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، وقال أبو داود: إن أبا حنيفة كان إمامًا، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى ذلك، وقال أبو معاوية الضرير: حُبُّ أبي حنيفة من السنة، ينظر: السير جـ٦ صـ٤٠١، التذكرة جـ١ صـ١٦٨، تاريخ بغداد جـ١٣ صـ٣١٣.

(1) الإمام مالك: هو أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة ومحدثها الأشهر، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ، وتوفي فيها سنة ١٧٩هـ، تلقى العلم عن ربيعة الرأي، فأخذ عن كبار الفقهاء من التابعين، صاحب المذهب المشهور، وله الموطأ وغيره، ينظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، تأليف د/ مصطفى السباعي صـ٤٣٠، طبع ونشر المكتب الإسلامي بيروت طـ٤، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(2) الشافعي: هو الإمام العلم محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبي أبو عبد الله الشافعي المكي، نزيل مصر، المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، عالم العصر، وناصر الحديث، فقيه الملة، نسيب رسول الله ﷺ وابن عمه، ينظر: السير جـ١٠ صـ٥-٩٩، تاريخ بغداد جـ٢ صـ٥٦، الوافي بالوفيات جـ٢ صـ١٧١.

(3) أحمد بن حنبل: هو الإمام الجليل أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله، شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره، الحافظ الفقيه، قال الشافعي: خرجت من بغداد فما خلفت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل، توفي سنة ٢٤١هـ، ينظر: السير جـ١١، صـ١٧٧، الحلية جـ٩ صـ١٦١، التهذيب جـ١، صـ٧٣.

(4) مقدمة د/ محمود قاسم لمناهج الأدلة لابن رشد صـ٣٦.

آراء أشهر الفرق الكلامية في الصفات

أولاً الجهمية[١]:

مذهب الجهمية هو: نفي الصفات عن الله ﷻ بحجة التنزيه المطلق ؛ إذ أن جهم بن صفوان رأى أن إثبات الصفات الواردة في كتاب الله تعالى يفضي إلى التشبيه بينه وبين خلقه، وهذا ينافي في نظره قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فأنكر جهم أن يكون لله عين وسمع وبصر، إلى غير ذلك من جميع الصفات «ورغم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حَدَّث عنه رسوله، كان كافرًا، وكان من المشبهة»[٢]، ولم يثبت من الصفات إلا كونه خالقًا قادرًا فاعلاً ؛ إذ ليس من خلقه من هو متصف بهذه الصفات؛ لأن الإنسان في نظره مجبور على فعله فلا يوصف بشيء من ذلك، وفي ذلك يقول الشهرساتاني حاكيًا قول جهم: «لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة بها خلقه؛ لأن ذلك يقتضي تشبيهًا، فنفى كونه حيًّا عالمًا، وأثبت كونه قادرًا، فاعلاً،

---

(1) الجهمية: هم أصحاب هم بن صفوان، من أهل خراسان، ينسب إلى سمرقند ترمذ، ومحتده الكوفة، ويكنى أبا محرز، وكان مولى لبني راسب من الأزد، وأخذ الكلام عن جعد بن درهم، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم (أو سالم) ابن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية.

ينظر: ترجمته تاريخ الجهمية والمعتزلة، تأليف: جمال الدين القاسمي صـ١٠، طبعة مؤسسة الرسالة طـ٣ سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، السير جـ٦ صـ١٩٨٥م، السير جـ٦ صـ٢٦، تاريخ الطبري جـ٧ صـ٢٢٠، ميزان الاعتدال جـ١ صـ٤٢٦.

ينظر لنفيه الصفات ورأيه فيها كتاب «جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي» تأليف د/ خالد العسلي رسالة ماجستير صـ٧٤، ٧٥، نشر المكتبة الأهلية، بغداد سنة ١٩٦٥، التنبيه والرد للملطي صـ١١٨، ١١٩، ١٢١.

(2) الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل، ضمن مجموعة عقائد السلف صـ٦٦.

خالقًا؛ لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق»[١].

ثانيًا المعتزلة[٢]:

ذهب أكثر المعتزلة إلى نفي الصفات عن الله ﷻ بمعنى أنه ليس لله تعالى صفات قديمة زائدة على ذاته، فالله تعلى عندهم قادر، حي، عالم بذاته لا بقدرة وحياة وعلم، وهكذا شأن باقي الصفات[٣]، ومن المعتزلة من أثبت الصفات لله تعالى، ولكنهم اختلفوا فمنهم من جعلها عين ذاته، كأبي الهذيل العلاف[٤]، ومنهم من جعلها أحوالاً للذات لا هي موجودة ولا هي معدومة، كأبي هاشم

(1) الملل والنحل للشهرستاني تحقيق الأستاذ أحمد فهمي، جـ١ صـ٧٣ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، طـ٢، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، الفرق بين الفرق للبغدادي، تحقيق محمد محيى الدين صـ٢١١، ٢١٢، طبع المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(2) المعتزلة: هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة، ولد سنة ٨٠هـ بالمدينة، المتكلم البليغ، قديم المعتزلة وشيخها وأول من أظهر المنزلة بين المنزلتين، وقد اعتزل عن الحسن البصرى لما خالف ، وجلس اليه عمرو بن عبيدة وقيل لهما ولأتباعهما معتزلون ، له كتاب فى التوحيد وكتاب المنزلة بين المنزلتين ، توفي سنة ١٨١هـ، ينظر: السير جـ٥ صـ٤٦٤، وفيات الأعيان جـ٦ صـ١١٠٧، لسان الميزان جـ٦ صـ٢١٤.

(3) الزمخشري تأليف د/ أحمد الحوفي صـ١٢٠، طبع الهيئة المصرية للكتاب طـ٢ سنة ١٩٨٠ بتصرف، مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين لأبي الحسن الأشعري، تحقيق محمد محيى الدين جـ١ صـ٢٤٤، طبع المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م بتصرف، فلسفة وفرق المعتزلة، تأليف د/ علي سامي النشار والأستاذ عصام الدين محمد علي ضمن كتاب فرق وطبقات المعتزلة صـ١٣٧ طبع دار المطبوعات الجامعية سنة ١٩٧٢م.

(4) أبو الهذيل: هو محمد بن الهذيل العبدي، الملقب بالعلاف، شيخ المعتزلة ومقدمهم ومقرر طريقتهم والمناظر عليها، توفي سنة٢٢٧هـ، ينظر: فرق وطبقات المعتزلة صـ٥٤-٥٨ مقالات الإسلاميين جـ١ هامش صـ٢٣٦.

الجبائي[١]، وبهذا لا يكون لهذه الصفات وجود إلا في الذهن فقط[٢]، فالله تعالى قادر بقدرة هي ذاته، وعالم بعلم هو ذاته، وكذا باقي الصفات، ولكنهم استثنوا من الصفات صفتي الإرادة والكلام، فقالوا: إنهما زائدتان على الذات ولا يقومان بها الذات، فالإرادة لا تقوم بمحل لأنها حادثة، والحادث لا يقوم بالذات القديمة، وكذلك الكلام لا يقوم بالذات وإنما يقوم في جماد[٣]، فالله تعالى عندما كلم سيدنا موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- خلق الكلام في شجرة سمع منها موسى كلام الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وحجة المعتزلة في نفيهم لصفات الله تعالى: امتناع تعدد القديم؛ لأن هذه الصفات لو شاركت الله تعالى في القدم -الذي هو أخص صفات الألوهية- للزم أن تكون آلهة، وحينئذ يتعدد الإله، والنصارى قد كفرت بإثبات ثلاثة من القدماء، فكيف الحال فيمن أثبت أكثر منها[٤]، وفي ذلك يقول واصل: «من

(1) أبو هاشم: هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي، المتكلم المشهور، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة، ولد سنة ٢٤٧هـ، وتوفي سنة ٣٢١هـ، ينظر: فرق وطبقات المعتزلة صـ١٠٠.

(2) الفرق بين القولين: إن الذين قالوا إن الله عالم بذاته لا بعلم، قد نفوا الصفة عنه تعالى، بينما أوجد أبو الهذيل صفة هي بعينها ذات، ينظر: المعتزلة، تأليف د/ زهدي جار الله صـ٦٥، ٧٤، نشر النادي العربي، القاهرة، واصل بن عطاء وآراؤه الكلامية، تأليف سليمان الشوايشي صـ١٦٠، نشر وطبع الدار العربية للكتاب بليبيا سنة ١٩٩٣م.

(3) تيسير الاقتصاد في الاعتقاد، تأليف د/ صالح شرف جـ٢ صـ٥، نقلاً عن تيسير الاقتصاد في الاعتقاد تأليف د/ نشأت عبد الجواد ضيف صـ٣٤، بتصرف.

(4) شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا صـ٣٧ طبع الكليات الأزهرية طـ١ سنة ١٤٠٧هـ، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، =

أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين»[(١)].

ويعلق أستاذنا/ عوض الله حجازي على هذا فيقول: «... ليس هناك إجماع يكفر من قال بتعدد القدماء!! كيف وقد قال الأشاعرة بقدم صفات المعاني السبعة وزيادتها على الذات، وقد زاد عليها الماتريدية صفة التكوين، وأما كون النصارى قد كفروا بإثبات ثلاثة من القدماء فإنهم لم يكفروا بإثبات ثلاثة من القدماء؛ لأنها صفات، بل لأنهم جوزوا عليها الانتقال، وقالوا: إن أقنوم[(٢)] العلم قد انتقل إلى بدن عيسى عليه السلام، والانتقال من خواص الأجسام لا من خواص الصفات، وأيضًا إنهم قد جعلوا هذه الأقانيم آلهة يجب لها الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فهم قد جعلوها آلهة، والآلهة ذوات لا صفات»[(٣)].

ظهر مما سبق أن المعتزلة أرادوا بنفيهم للصفات تصحيح التوحيد ونفي التعدد، ولكن يؤخذ عليهم أنهم حَكَّموا العقل في كثير من القضايا «وليس ذلك

=

تأليف د/ عمر سليمان الأشقر صـ١٧٠ طبع دار النفائس، الأردن طـ٢، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(1) الملل والنحل للشهرستاني جـ١ صـ٤٠.

(2) أقنوم: كلمة سريانية معناه شخص أساسي، أو شخص رئيسي، وهي قريبة من الكلمة اليونانية nomos ومعناها: قانون، ولذا فضلت الكنائس الشرقية استعمال لفظ أقنوم على لفظ شخص؛ لأن المقصود في التثليث بالأقنوم كيان ذاتي، أو في الذات، ينظر: دراسات في الكتاب المقدس «إنجيل يوحنا» صـ٤٣ طـ دار العالم العربي بمصر ١٩٧٥ نقلاً عن «أقانيم النصارى» كتاب يتحدث عن أصل الديانة النصرانية وتطورها ونقدها بأدلة من أسفار التوراة والإنجيل وكتب التاريخ، تأليف د/ أحمد حجازي السقا صـ٩، وشرح العقائد النسفية صـ٣٧.

(3) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي، تأليف د/ عوض الله حجازي صـ١٣١، ١٣٢ طبع دار الطباعة المحمدية، القاهرة، طـ٣ سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال»[(١)].

ثالثًا الفلاسفة:

ذهبت الفلاسفة إلى نفي زيادة الصفات على الذات، وقالوا: بأن صفات الباري هي عين ذاته، فالله تعالى عندهم سميع بذاته، مريد بذاته، واستثنوا من قولهم هذا صفة الكلام، فقالوا: بأنها زائدة على الذات غير قائمة بها (الذات)؛ لأن هذه الصفة حادثة، ومعنى أن الله تعالى متكلم؛ أي: أنه خلق الكلام في ذات النبي ﷺ[(٢)].

ومعنى قولهم: إن الصفات عين الذات؛ أي: أنه ليس وراء الذات معنى زائدًا لا في الذهن ولا خارج الذهن.

وحجة الفلاسفة على وجهة نظرهم: أن إثبات الصفات لله تعالى يستلزم

---

(1) مقدمة ابن خلدون، تأليف عبد الرحمن بن محمد بن خلدون صـ٥٠٩، طـ دار الجيل، بيروت.

(2) لبيان مذهبهم ينظر: تيسير الاقتصاد في الاعتقاد، تأليف د/ نشأت عبد الجواد ضيف صـ٣٦، دراسات في علم التوحيد، إعداد أ. د/ عوض الله حجازي، د/ حبيب الله حسن أحمد صـ٦، ٧، ٨.

والفرق بين مذهب الفلاسفة والمعتزلة من وجوه:

أ- الفلاسفة جردوا الإله عن الصفات والأحوال، فليس له أحوال كما يقول المعتزلة.

ب- الفلاسفة استثنوا صفة الكلام فقط، بخلاف المعتزلة فإنهم استثنوا مع الكلام صفة الإرادة.

جـ- الكلام عند الفلاسفة ليس مخلوقًا في شجرة، وإنما هو مخلوق في ذات النبي ﷺ إما في النوم أو في اليقظة، وهذه الأصوات ليس لها وجود خارجي.

ينظر: المرجع السابق.

أن يكون الباري مركبًا، وأن يكون جسمًا مؤلفًا، وفي هذا نفي لإثبات الوحدانية لله تعالى، وفي ذلك يقول صاحب المواقف: «احتج العلماء بأنه لو كان له صفة زائدة على ذاته لكان هو فاعلاً لتلك الصفة لاستناد جميع الممكنات إليه، وقابلاً لها أيضًا لقيامها بذاته»(١).

ويمكن الرد عليهم: بأن المستحيل هو تعدد الذات، لكن وجود ذات قديمة لها صفات غير مستحيل، وفي ذلك يقول السعد: «المستحيل هو تعدد الذوات القديمة وهو غير لازم، ويلازمكم كون العلم مثلا قدرة وحياة، عالمًا، وحيًّا، قادرًا، وصانعًا للعالم ومعبودًا للخالق، وكون الواجب غير قائم بذاته، إلى غير ذلك من المحالات»(٢).

رابعًا الأشاعرة:

يرى الأشاعرة أن لله سبحانه وتعالى صفات زائدة على ذاته، وهي موجودة وقديمة ومختلفة فيما بينها، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلم زائد على ذاته، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، وسميع بسمع، ومتكلم بكلام، إلى غير ذلك من صفات المعاني(٣).

وقد احتجوا لمذهبهم هذا بحجج منها:

١- قياس الغائب على الشاهد؛ أي: أن الصفات الإلهية تفهم من صفات

---

(1) شرح المواقف الموقف الخامس صـ٨١.

(2) شرح العقائد النسفية صـ٣٧، ويراجع في الرد عليهم مفصلاً كتاب «أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة» تأليف د/ عمر سليمان الأشقر صـ١٧٥-١٩٣.

(3) صفات المعاني: هي كل صفة قائمة بموصوف، موجبة له حكمًا كالقدرة، والإرادة، والعلم، والبصر، والحياة.

ينظر في ذلك: تحفة المريد على جوهرة التوحيد للبيجوري صـ٧٦ طبع الإدارة الأزهرية سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م.

الشاهد، وقد ثبت في الشاهد أن كون الواحد منا حيًّا، وعالمًا، وقادرًا، معللاً بأن له حياة وعلم وقدرة تقوم به، فكذا في الذات الإلهية.

٢- لو كان المفهوم من صفة العلم هو نفس الذات، والمفهوم من صفة القدرة كذلك، لكان العلم نفس القدرة، وهذا باطل، وكذا القول في باقي الصفات التي يدعى فيها بأنها عين الذات.

٣- لو كان المفهوم من الحياة والعلم والقدرة نفس الذات، لم يفد حمل هذه الصفات على ذاته، وكان القول: بأن الله العالم أو القادر، إلى غير ذلك من الصفات، يعد من باب حمل الشيء على نفسه، وهذا باطل؛ لأن وصف الله بهذه الصفات يقتضي زيادة واضحة على ذاته، فمن هنا قلنا بأن هذه الصفات زائدة على الذات[١].

ويمكن الرد على الأشاعرة بالآتي:

١- تناقض الأشاعرة في الصفات، حين أثبتوا بعض الصفات (صفات المعاني) بدون تأويل، وأولوا بعضها (الصفات الخبرية).

٢- قولهم بأن لله صفات قديمة زائدة على ذاته (مغايرة لها) أوقعهم في التناقض، إذ كيف تكون مغايرة للذات وقديمة؟!

٣- قياسهم للغائب على الشاهد حجة لم تسلم لهم في إثبات الصفات لله تعالى؛ إذ أن نسبة الصفات إلى الله تعالى ليست هي نسبة صفات الإنسان إلى صاحبها.

٤- الوجهان الثاني والثالث لهم لم ينهضا بالاحتجاج على أن الصفات مغايرة للذات، بل إنهما أفادا المغايرة بين مفاهيم الصفات، ليس أكثر من ذلك[٢].

---

(1) شرح المواقف في علم الكلام، الموقف الخامس صـ٧٨، ٧٩، ٨٠.

(2) مقدمة د/ محمود قاسم لكتاب «مناهج الأدلة في عقائد الملة» لابن رشد صـ٤٢، ٤٣، =

خامسًا الكرامية[١]:

أثبتت هذه الطائفة للخالق تعالى جميع الصفات من القدرة، والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر، والكلام، إلى غير ذلك من الصفات التي ورد بها الشرع، ولقد بالغوا في ذلك حتى أطلقوا عليه سبحانه وتعالى أنه جسم له حد ونهاية من تحته.

وقالوا: إن الخالق تعالى محل للحوادث، كما زعموا أن أقواله وإرادته، وإدراكاته للمرئيات والمسموعات، أعراض حادثة فيه، وهو محل لها، كما وصفوه بالثقل عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١]، فقالوا: بأنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها، وقالوا: أن كل اسم له مشتق من أفعاله، يكون ذلك الاسم ثابتًا له في الأزل، مثل الخالق، والرازق، والمنعم، وقالوا: إنه كان خالقًا قبل أن خلق، ورازقًا قبل أن رزق، ومعنى خالقيته؛ أي: قدرته على الخلق، ورازقيته؛ أي: قدرته على الرزق، والقدرة قديمة، والخلق والرزق حادثان فيه بقدرته[٢].

=

وأيضًا شرح المواقف الموقف الخامس صـ٨٠، ٨١.

(1) هم أصحاب محمد بن كرام أحد شيوخهم ومصنفي كتبهم، كان من سجستان، وكان يتعبد ويظهر التقشف والتقلل من الدنيا، وكذلك أصحابه، وأكبر ظهورهم في نيسابور، ومن مقولاته: إن الإيمان قول باللسان دون اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، فمن أقر بلسانه فهو مؤمن حقًّا، وإن اعتقد بقلبه ما شاء من الشرك... "البرهان في عقائد الأديان" ، تأليف/ عباس بن منصور السكسكي الحنبلي، تحقيق خليل أحمد إبراهيم الحاج صـ١٨، طبع دار التراث العربي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٠م.
وينظر: الفرق بين الفرق صـ٢١٥.

(2) الفرق بين الفرق للبغدادي صـ٢١٦-٢٢٠ بتصرف، ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي صـ١٣٥.

ومذهب الكرامية مردود من أصله؛ لأنهم جعلوا من إثبات الصفات للخالق تعالى وسيلة لتجسيده، ولحلول الحوادث فيه، وهذا يتنافى مع قدسيته، ويتعارض مع قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

obeikandl.com

رأي القاسمي في مسألة الصفات

يثبت القاسمي للمولى ﷻ كل صفة تصفه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص، وهو في ذلك ليس بدعًا من العلماء، فهذا ما أقره سلف الأمة، ويرى كذلك أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك الصفات، وفي ذلك يقول القاسمي: «كل من تعرض لمعرفة الذات بعقله، فقد تعرض لأمر يعجز عنه، ولا يمكنه بلوغ الأرب منه، والمرء إذا عجز عن معرفة كنه نفسه، بل عن اكتناه أبسط الأشياء لديه، فعن معرفة اكتناه الحق بالأولى، فمعرفتنا به سبحانه إنما هي علمنا بوجوده وبأسمائه الحسنى، وأنه ليس كمثله شيء»[(١)].

ويرى القاسمي أن الصواب في مسألة الصفات هو مذهب السلف الصالح[(٢)] -رضوان الله عليهم أجمعين- ومؤداه: وصف الله تعالى بما وصف به

---

(1) دلائل التوحيد للقاسمي صـ٧٨.

(2) السلف: هم القوم المتقدمون، ويطلق هذا اللفظ على الصدر الأول من التابعين للسلف الصالح، ينظر: لسان العرب لابن منظور جـ٣ صـ٢٠٦٨، ٢٠٦٩.

ومن الناحية التاريخية: يطلق على الذين عاشوا قبل القرن الخامس الهجري، والبعض يحددون السلف بالصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

ومن الناحية العقدية: يطلق على الصحابة والتابعين وتابعيهم، دون من رُمي ببدعة أو شهر بلق غير مرضي كالخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهم العلماء بأصول السنة وطرائقها، وهم حراس الشريعة الواعون لأصولها، العاملون بها قولاً وعملاً واعتقادًا ظاهرًا وباطنًا، وقيل: هم الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس بأقواله وأفعاله وأحواله، وهذا الرأي هو ما أميل إليه في تعريف السلف، ينظر: دراسات علمية في المسائل العقدية، تأليف د/ آمنة محمد نصير صـ٣٣، ٣٤، مطبعة الصديق ط٢ سنة ١٤١٦/ ١٩٩٦م، ولوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، تأليف الشيخ/ محمد السفاريني صـ٢٠، طبع المكتب الإسلامي،

نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسول الله ﷺ في سنته من غير تكييف ولا تأويل ولا تعطيل[1]، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تشابه بينها وبين صفات المخلوقين، يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

واستدل القاسمي على رأيه بنصوص نقلها عن الإمام أحمد، وأبي حامد الغزالي، والبيهقي، وابن القيم، وابن تيمية.

من ذلك ما نقله عن الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» في بيان أن مذهب السلف هو الحق، قال: ولهذا برهانان؛ عقلي وسمعي:

=

بيروت ط٣ سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(1) التكييف: هو أن يقال: الصفة على هيئة كذا، وكيفية كذا.

التمثيل: هو تشبيه الخالق بالمخلوق، ينظر: التحف في مذاهب السلف للإمام الشوكاني، تقديم وتعليق/ سليم بن عبد الهادي، علي حسن عبد المجيد، هامش صـ٣٥، ط مكتبة الوعي الإسلامي، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، فتح رب البرية بتلخيص الحموية، ابن تيمية ضمن رسائل في العقيدة، تأليف الشيخ/ محمد بن عثيمين صـ٥٤، ٥٥ نشر دار الصفوة الطبعة الأولى.

التأويل: هو نقل ظاهر اللفظ عن وصفه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.

التعطيل: هو التفريغ والإخلاء، ويطلق في الاصطلاح على نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذات الله تعالى.

لسان العرب جـ١ صـ١٧٢، جـ٤ صـ٢٩٩٨، الإيمان ونواقضه تأليف د/ محمد نعيم ياسين صـ١٢ نشر مكتبة الزهراء، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم تحقيق سيد إبراهيم صـ٢٣ طـ١ دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى.

أولاً: البرهان العقلي:

وهو إما كلي وإما تفصيلي؛ والكلي يظهر بأربعة أصول مُسَلّمَة لكل عاقل:

أ- إن أعرف الخلق بصلاح العباد في معاشهم ومآلهم هو النبي ﷺ.

ب- إن النبي ﷺ أخبر العباد بما يصلح به أحوالهم ولم يكتمهم شيئًا مما أوحي إليه، والقرائن دالة على ذلك، فما ترك شيئًا يقربهم إلى الجنة إلا ودلهم عليه، ولا شيء يقربهم من النار إلا ونهاهم عنه.

جـ- إن أعرف الناس بمعاني القرآن الكريم هم الذين شاهدوا نزوله وعاصروا النبي ﷺ وصاحبوه ولازموه آناء الليل والنهار ؛ لأجل أن يفهموا هذه المعاني، وينقلوها إلى من بعدهم تقربًا إلى الله تعالى وهم صحابته رضوان الله عليهم أجمعين-.

د- إن هؤلاء الصحابة على طول حياتهم لم يدعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتأويل لمثل هذه الأمور، بل كان الظاهر منهم زجر من تحدث في مثلها، فترتب على هذه الأصول أن الحق في قولهم والصواب ما رأوه.

والعقلي التفصيلي: يقوم على أمور يجب على الخلق الالتزام بها وهي:

أ- تقديس الحق عن التشبيه ومشابهة الأجسام.

ب- التصديق والإيمان بما قاله الرسول ﷺ بالمعنى الذي أراده.

جـ- الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعاني.

د- السكوت عن السؤال وعن الخوض فيما وراء طاقة العقل.

ه – إمساك اللسان عن تغيير هذه الظواهر بالزيادة أو النقصان والجمع والتفريق.

و- كف القلب عن التفكر في ذات الخالق وحقيقة صفاته وقصر تفكيره على آلائه.

ز- التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين.

ثانيًا: البرهان السمعي:

وطريقه أن نقيض مذهب السلف بدعة، والبدعة مذمومة وهي ضلالة، والخوض في التأويل من جهة العوام والعلماء بدعة فيكون نقيضه وهو الكف عن الخوض في التأويل سنة محمودة، وإذا سلم ذلك نتج أن الحق هو مذهب السلف(١).

ومن ذلك أيضًا ما نقله عن ابن القيم، ومؤداه أن طريق السلف ومن تبعهم هو الأولى بالاتباع؛ ذلك أن من يتأمل الأحاديث النبوية يجدها في غاية بيان المتكلم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعاني، وكمال معرفته وعلمه بما يعبر عنه، وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلائق، فيستحيل عليه ﷺ أن يخاطب الناس بشيء وهو لا يريد منهم ما يدل عليه خطابه، بل يريد منهم أمرًا بعيدًا، فكيف يليق بالنبي أن يعدل عن مقتضى البيان الرافع للإشكال والإبهام ويوقع الأمة في أودية التأويلات والاحتمالات، إن من يقول مثل هذا الكلام لا يُقَدِّرُ الله حق قدره، وكذلك رسوله.

والمسلك الصحيح في هذه المسألة ينبني على:

أ- عدم مشابهة صفات الله تعالى بصفات المخلوقين؛ لأن ذاته تعالى ليست كذواتهم، فكذلك صفاته، والنفاة ما نفوا هذه الصفات إلا لاعتقادهم القاصر أن صفات الله تعالى تشبه صفات المخلوقين، وعدم معرفتهم بأن لوازم الصفات تختلف باختلاف محلها، فلازم الفرح مثلاً بالنسبة للإنسان يختلف عن لازمه بالنسبة لله تعالى.

---

(1) تفسير القاسمي محاسن التأويل ط١ صـ٣٣٩، ٣٢٤ بتصرف، ويراجع في «إلجام العوام عن علم الكلام» تأليف/ حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي صـ٢٤-٢٧ عُنِي بنشره محمد علي عطية الكتبي ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م.

ب- الحق إثبات ما أثبته الله لنفسه في كلامه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه ولا تحريف ولا تمثيل[١].

وبذلك ظهر لنا من خلال رأي القاسمي في الصفات أنه أثبت جميع صفات الجلال والكمال لله تعالى ولم يتأثر بآراء الفرق الكلامية السابقة عليه، وكان عمدته في ذلك ما ورد عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ.

(1) تفسير القاسمي جـ٢ صـ٣٤٣، صـ٣٤٥ بتصرف، طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام ابن قيم الجوزية، تعليق/ محمود غانم غيث صـ٣٢٩-٣٣٣ نشر دار الطباعة المحمدية مصر الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

obeikandl.com

المبحث الرابع

الصفات الخبرية

ويشتمل على:

١- تمهيد.

٢- آراء أشهر الفرق في الصفات الخبرية.

٣- رأي القاسمي في الصفات الخبرية.

٤- تعقيب.

obeikandl.com

obeikandl.com

الصفات الخبرية

تمهيد

ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة تثبت لله تعالى كثيرًا من الصفات التي يوهم ظاهرها التشبيه كاليد والعين والقدم والاستواء على العرش إلى غير ذلك، ولكن هل هذه الأمور المنسوبة إلى الله تعالى -في القرآن والسنة، صفات لله تعالى- وفق حقيقة ألفاظها المتَصَوَّرة في أذهان الناس؟ أو صفات لله تعالى وفق حقيقة كلية تدل عليها الألفاظ بالإطلاق العام، والجانب الأعلى منها يليق بجلال الله تعالى لا تشبيه فيه ولا تجسيم؟ أو صفات لله تعالى مستعملة في حقائق أخرى مسماة في لسان الشرع بهذه الأسماء، ولا نعلم حقيقتها على وجه التحديد؟ أو أنها مستعملة لمعانٍ غير المعاني الظاهرة منها على وجه المجاز، ونحن نستطيع أن ندرك هذه المعاني[1]؟

فهذه وجوه تمثل آراء العلماء في مسألة الصفات الخبرية.

والصفات الخبرية من الصفات التي اختلف الفرق في إثباتها لله تعالى وكثرة الجدل حولها ؛ لذا رأيت إفرادها بالبحث وهي تعني:

تلك الصفات التي كان طريق معرفتها والاستدلال عليها هو القرآن الكريم وخبر الرسول ﷺ من غير استناد إلى دليل عقلي، ومنها الاستواء، والنزول، واليد، والعين، والفرح، والرضا، والغضب، والمجيء إلى غير ذلك[2].

---

(1) العقيدة الإسلامية وأسسها تأليف/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، صـ٢١٦ في (ط) دار القلم دمشق بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

(2) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي ت د/ عوض الله حجازي صـ١٣٧ ط٣ سنة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م ط دار الطباعة المحمدية بتصرف.

وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- صفات فعلية تتجدد بحسب مشيئة الله تعالى وهي:

١- النزول. ٢- الاستواء على العرش.

٣- المجيء لفصل القضاء بين عباده سبحانه يوم القيامة كما يليق به.

٤- الغضب. ٥- الفرح.

٦- الضحك كما يليق بجلاله وعظمته سبحانه.

ب- صفات ذاتية قائمة بذاته العلية وهي قديمة قدم الذات مثل الوجه، واليد والقدم[١].

وقبل التعرض لرأي القاسمي في هذه المسألة نذكر آراء الفرق فيها:

١- الكرامية:

هذه الفرقة تثبت جميع الصفات التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى وتجريها على ظاهرها، ولكن هذا الإثبات ينتهي بهم إلى التجسيم والتشبيه[٢] بصفات المخلوقين، وفي ذلك يقول الشهرستاني حينما تعرض لبيان مذهبهم في هذه الصفات ما نصه: نص أبو عبد الله على أن معبودهم على العرش استقرارًا، وعلى أنه بجهة فوق ذاتًا، وأطلق عليه اسم الجوهر... وأنه مماس للعرش من

---

(1) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، تأليف الدكتور/ محمد أمان بن علي الجامي، طبعة دار الإيمان صـ٢٠٧، ٢٠٨.

(2) ذكر البغدادي أن المشبهة صنفان: صنف شبهوا ذات الله بذات غيره، وصنف آخرون شبهوا صفات الله بصفات غيره «الفرق بين الفرق» للبغدادي صـ٢٢٥، والمشبهون لذات الله بغيره كالنصارى الذين شبهوا عيسى بالله، ومن شبه صفات الخالق بصفات المخلوق الكرامية، «التنبيهات الثنية على العقيدة الواسطية» تأليف/ عبد العزيز بن ناصر الرشيد، نشر دار الرشيد للنشر والتوزيع، طبع دار الأصفهاني بجدة صـ١٣.

الصفحة العليا، وجوز الانتقال، والتحول، والنزول، وقال محمد بن الهيصم[(١)]: إنه بينه وبين العرش بعدًا لا يتناهى، وأنه مباين للعالم بينونة أزلية... وأطلق أكثرهم لفظ الجسم عليه[(٢)].

فهذه الفرقة لا يختلف رأيها في الصفات الخبرية عن الصفات الكمالية، فالنتيجة: هي التجسيم والتشبيه على الكلية.

لذلك كان الرد مثل الرد السابق عليهم، وهو أن قولهم هذا يؤدي إلى تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وهذا ما لا يقوله أحد ؛ إذ أنه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٢- مذهب متقدمي الأشاعرة[(٣)]:

ذهب متقدموا الأشاعرة: إلى إثبات جميع الصفات الخبرية لله تعالى، ووصفه بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله[(٤)] ﷺ وفي ذلك يقول أبو الحسن الأشعري في الإبانة: عندما ذكر قول أهل الحق مثبتًا هذه الصفات ما نصه: وأن الله استوى على عرشه كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

وأن له وجهًا بلا كيف كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [ص: ٧٥]، وكما قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له عينًا بلا كيف كما قال: « [القمر: ١٤][(٥)]،

(1) محمد بن الهيصم: هو ابن أمين الدين إبراهيم بن عبد الغني بن إبراهيم بن الهيصم متكلم الكرامية مات سنة ٨٧٣هـ، ينظر الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٦/ ٢٥٥.

(2) الملل والنحل للشهرستاني جـ١ صـ٩٩، ١٠٠.

(3) كأبي الحسن الأشعري وأبي بكر الباقلاني.

(4) بتصرف من كتاب ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي صـ١٦٠.

(5) وينظر في ذلك كتاب الإبانة من أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري طبع الطبعة المنيرة صـ٩.

وبمثل هذا القول: قال أبو بكر الباقلاني: بإثبات جميع الصفات الخبرية لله تعالى، ورد على من زعم بأن الاستواء هو الاستيلاء؛ يعني: أن هذا لا يجوز؛ لأن الاستيلاء هو القدرة والقهر، والله تعالى لم يزل قاهرًا عزيزًا مقتدرًا، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ يقتضي استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن؛ فبطل ما قالوه، ثم قال: (باب) فإن قال قائل: ففصِّلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله لأعرف ذلك؟ قيل له: صفاته ذات هي: التي لم يزل ولا يزال موصوفًا بها، وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه واليدان والعينان والغضب والرضا، وصفات فعله هي: الخلق والرزق والعدل والإحسان والتفضل والإنعام والثواب والعقاب والحشر والنشر.

وكل صفة كان موجودًا قبل فعله لها[١]، وهذا الذي قرره الإمامان الأشعري والباقلاني هو بعينه ما قرره الإمام أحمد بن حنبل[٢] مما جعل الأشعري يعترف له بالفضل في كتابه "الإبانة "[٣].

وهذا المذهب لا اعتراض عليه مطلقًا من جهة العقيدة، ولا من جهة العقل، وهو الأحق بأن يُسْتَمْسَك به، وهو الذي نصره الإمام ابن تيمية وابن القيم ومن تبعهما، وهي طريقة المحدِّثين وكثير من أهل السنة والجماعة، ورأوا أنه هو الحق الذي لا يصح العدول عنه، وهو مذهب السلف؛ حيث قالوا: هذا ما يدل عليه إثبات أن الله سميع بصير[٤]، بعد نفي مماثلة شيء له، في قوله تعالى:

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية تحقيق: أبي حفص سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، ط دار الحديث صـ١٥٧، صـ١٥٨.

(2) لبيان مذهب الإمام أحمد بن حنبل ينظر في ذلك الملل والنحل للشهرستاني جـ صـ٨٠.

(3) الإبانة عن أصول الديانة صـ٨.

(4) العقيدة الإسلامية وأسسها صـ٢١٧، صـ٢١٨، وينظر الحموية الكبرى لابن تيمية ضمن مجموع فتاويه، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، ح(٥/ ١٠-

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٣- مذهب المعتزلة:

ذهبت المعتزلة: إلى نفي الصفات الخبرية، وتأويل ما ورد فها بمعان تليق بذات الله تعالى كما نفوا صفات المعاني، وحينما تعرض الشهرستاني لبيان مذهبهم: ذكر بأن المعتزلة فرق اتفقت على نفي رؤية الله تعالى في الآخرة، ونفي كل ما يؤدي إلى التشبيه، من أي باب، سواء الجهة أو المكان أو الصورة أو الجسم أو التحيز أو الانتقال أو الزوال أو التغيير أو التأثر، وذهبوا إلى وجوب تأويل الآيات المتشابهة ؛ وادَّعوا: أن هذا هو التوحيد(١).

ومما يؤيد هذا نفي الزمخشري لرؤية الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣](٢)، فالمعتزلة بقولهم هذا زعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد بنفي التشبيه عن الخالق فأبطلوا الصفات(٣).

وهذا الزعم لم يسلم للمعتزلة؛ إذ أنهم بالغوا في التنزيه فوقعوا في

=

٥٠) في ط -ابن تيمية وكتاب مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية جـ١ صـ٣٠.

(1) الملل والنحل للشهرستاني جـ١ صـ٣٩ بتصرف، وينظر: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان صـ٢٦ والفرق بين الفرق للبغدادي صـ١١٤.

(2) وينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، طبع دار المعرفة للطباعة والنشر، جـ٢ صـ١١٥، صـ١١٦، ولزيادة البيان لمعرفة رأيهم في الصفات الخبرية ينظر المعتزلة د/ زهدى جار الله صـ٨٣-٨٦.

(3) الاختلاف في الفظ، والرد على الجهمية والمشبهة للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ضمن مجموعة عقائد السلف، جمع د/ علي سامي النشار، وعمار الطالبي صـ٢٣٢، نشر منشأة المعارف الإسكندرية.

التعطيل، ولو أنهم أثبتوا الله تعالى ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ لهداهم الله إلى الحق[١].

٤- مذهب متأخري الأشاعرة:

أمثال: الغزالي والرازي والإيجي، وهؤلاء لم يقروا بالصفات الخبرية، بل أولوا النصوص التي وردت فيها؛ فالرازي في كتابه «أساس التقديس» أوَّل جميع الصفات الخبرية بحجج عقلية، والأمثلة على ذلك كثيرة، أُكتفي منها بما قاله في تأويله لصفة العين إذ يقول: اعلم أن النصوص من القرآن لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه:

الأول: أن ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩]، يقتضي أن يكون موسى عليه السلام مستقرًّا على تلك العين، ملتصقًا بها، مستعليًا عليها، وذلك لا يقوله عاقل.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود: ٣٧] يقتضي أن يكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين.

الثالث: أن إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل؛ وذلك هو أن تحمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة[٢] وبمثل تأويله لهذه الصفة، ذهب إلى تأويل جميع الصفات الخبرية وتبعه في ذلك صاحب المواقف[٣].

---

(1) في العقيدة تأليف د/ عبد الفتاح الفاوي صـ١٣٥، طبع ونشر دار أسامة القاهرة سنة ١٤٠٥، ١٩٨٥، المقالات العشر في منهج علم الكلام، تأليف د/ عبد الفتاح الفاوي صـ١١، نشر مكتبة الزهراء القاهرة سنة ١٩٩٣.

(2) أساس التقديس للإمام/ محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا صـ١٥٨، نشر مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م.

(3) ينظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، تحقيق الشيخ/ محمد مصطفى أبو العلا صـ٥٢-٥٨
=

وهذا المذهب ينطوي على ضعف واضح، وليس أدلُّ على ذلك من تراجع معظم المتحدثين به عن أقوالهم فيه إلى ما أقره السلف الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين- ومن ذلك قول الرازي في كتابه «أقسام اللذات»: واعلم أن بعد التوغل في هذه المضايق، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب طريقة القرآن الكريم... من غير خوض في التفاصيل[١]، والغزالي -رحمه الله- في آخر عمره أشاد بمذهب السلف، وبين أنه الصواب؛ لأنه مأخوذ عن النبي ﷺ مباشرة، وأن غيره ابتداع وضلال[٢]، يقول ابن عساكر -رحمه الله- عن الغزالي: وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم[٣].

وكذلك الجويني[٤] في كتابه العقيدة النظامية إذ يقول: اختلف مسالك

=

طبع مطبعة الجندي سنة ١٩٧٢م، وشرح المواقف في علم الكلام «الموقف الخامس» صـ٣٧-٣٩.

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية صـ١٥٩-١٦٠ ومقال الشيخ مصطفى عبد الرزاق في تصديره لكتاب «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي مراجعة د/ النشار صـ٢٢-٢٥، نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦، ١٩٣٨.

(2) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي صـ٢٧ بتصرف.

(3) الصفات الإلهية بين السلف والخلف، تأليف/ عبد الرحمن الوكيل صـ٩٧ نقلاً عن تبين كذب المفتري لابن عساكر صـ٢٩٦، نشر مؤسسة قرطبة مصر، توحيد الصفات بين اعتقاد السلف وتأويلات الخلف، تأليف د/ محمود عبده عبد الرزاق صـ٢٣٤-٢٤١، مطبعة التقدم ط١ سنة ١٩٩١م.

(4) الجويني: هو شيخ الإسلام عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعي، أحد الأئمة الأعلام، ولد سنة ٤١٩هـ، تفقه على والده في صباه، واشتغل به مدة، ثم أخذ في تحقيق المذاهب والخلاف، وسلك طريقة المباحثة والمناظرة، وجمع الطرق بالمطالعة، حتى أربى على المتقدمين، صنف الشامل في أصول الدين، والإرشاد، والعقيدة النظامية،

=

العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة... وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل... والذي نرتضيه رأيًا وندين الله به عقدًا اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع..[١]، وبمثل ذلك قال في كتابه «غياث الأمم»[٢].

=

وغيرهم كثير، وكان على رفعة قدره له حظ وافر من التواضع، توفي سنة ٤٧٨هـ.
ينظر المنتظم (٩/ ١٩)، الشذرات (٣/ ٣٥٨)، طبقات السبكي (٥/ ١٦٥، ٢٢٢).

(1) العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تأليف/ إمام الحرمين الجويني، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا صـ٣٢، نشر الكليات الأزهرية طبعة سنة ١٩٧٨م، أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية المجلد الثاني جـ٤ صـ٢١٣-٢١٤، طبع دار الحديث القاهرة.

(2) غياث الأمم في التياث الظلم للجويني تحقيق د/ عبد العظيم الديب صـ١٩٠-١٩١، طبع نهضة مصر، ط الثانية ١٤٠١هـ.

obeikandl.com

رأي القاسمي في الصفات الخبرية

ذهب القاسمي إلى إثبات هذا النوع من الصفات كما أثبت الصفات عمومًا، ويرى أن صفات الله ﷻ التي يتصف بها المخلوق لا يراد منها تشبيه المولى بخلقه، وظاهر هذه الصفات إنما هو كمال يليق بالخالق تعالى، وهذا هو مذهب السلف، وفي ذلك يقول: «أعدل المذاهب مذهب السلف؛ فإنهم أثبتوا النصوص بالتنـزيه من غير تعطيل ولا تشبيه وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوقات، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل، فمثلوا أولاً وعطلوا آخرًا، فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به ﷻ بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف نبيه من غير تحريف ولا تشبيه»[(١)].

من أجل ذلك ردَّ القاسمي على الفرق التي ذهبت إلى غير ما ذهب إليه السلف وينجلي لنا ذلك واضحًا في رده على الجهمية التي نفت الصفات عن الله تعالى، وحجتها في ذلك أن إثباتها يؤدي إلى تشبيه الخالق بالمخلوقين فيرد عليهم بأنه لو كان ذلك هو المقصود لما ارتد أحد عن نفيها، لكن الواقع والظاهر هو غير ذلك[(٢)]، وعلى هذا المنهج سار القاسمي في تفسيره للآيات الواردة في الصفات الخبرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أ- قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(1) محاسن التأويل جـ٤ صـ٥٢٢٧.

(2) تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي صـ١٩، ٢٠ بتصرف.

إن للاستواء عدة معانٍ منها: الاستقرار، والقصد، والإقبال، والعلو والاستيلاء، لكن المعنى الموافق لتفسير الاستواء في الآية هو العلو، وأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو مذهب الخلف، ثم أخذ يستدل على ما ذهب إليه بأدلة كثيرة نقلها عن أئمة أعلام أمثال: البخاري[١]، والحافظ الذهبي[٢]، وابن قتيبة[٣]، وأبو زرعة الرازي[٤]، وابن عبد البر[٥]، وابن فورك[٦]، وغيرهم،

---

(1) البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أمير المؤمنين في الحديث، وصاحب الكتاب المشهور «صحيح البخاري» كان آية في الحفظ والفهم والإتقان، توفي ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٥٥)، حياة البخاري للقاسمي.

(2) الذهبي: هو الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد التركماني الذهبي، ولد بدمشق سنة ٦٧٣هـ، وسمع بها ورحل كثيرًا، وبلغ الغاية في الرجال والجرح والتعديل، كأن الأمة جمعت له في صعيد واحد، وكان صاحب أسلوب بديع، وله كثير من المصنفات، توفي سنة ٧٤٨ في ذي القعدة، ينظر: الدر الكامنة (٣/ ٣٣٧)، النجوم الزاهرة (١٠/ ١٨٢)، الشذرات (٦/ ١٥٣).

(3) ابن قتيبة: هو العلامة الكبير ذو الفنون أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، صاحب التصانيف، نزل بغداد وصنف وجمع، وبعد صيته، قال الخطيب: كان ثقة دينًا فاضلاً، ينظر: السير (١٣/ ٢٩٦)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٧٠)، المنتظم (٥/ ١٠٢).

(4) أبو زرعة الرازي: هو عبد الله بن عبد الكريم بن الزيد القرشي، كان من أفراد الدهر حفظًا وذكاءًا، توفي سنة ٢٦٤، ينظر التهذيب (٧/ ٣٠)، سير (١٣/ ١٦٥)، الجرح والتعديل (١/ ٣٢٨).

(5) ابن عبد البر: هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، حافظ المغرب، مولده سنة ٣٦٨هـ، صنف «التمهيد» فأبدع حتى قال فيه ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً، فكيف أحسن منه، وله «الاستيعاب» وجامع العلوم، توفي سنة ٤٦٣، ينظر الصلة (٦١٦)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٨-١١٣٢).

(6) ابن فورك: هو الإمام العلامة الصالح الأصولي الأديب النحوي الواعظ، شيخ المتكلمين أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني كان أشعريًّا ورأسًا في فن الكلام،

ونظرًا لكثرة ما نقله نكتفي بما نقله عن هؤلاء الأئمة عن البخاري وأبي زرعة الرازي، ونحيل على الباقي.

فمن ذلك قوله عن البخاري: قال البخاري في آخر صحيحه في كتاب الرد على الجهمية في باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

قال مجاهد: استوى: علا على العرش[(١)]... ثم قال: روى أبو إسماعيل الأنصاري[(٢)]، عن أبي زرعة الرازي أنه سئل عن تفسير: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

=

صاحب التصانيف الكثيرة، توفي قبل الحاكم بسنة، ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢١٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٨١)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٤٠).

(1) محاسن التأويل جـ٧ صـ٢٧٠٤-٢٧٥١ وتحقيق ما نقله عن الأئمة، ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء جـ١٣ صـ٤١٤، مختصر العلو للذهبي، تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني صـ١٦٧-١٦٨ طبع المكتب الإسلامي بيروت ط١، سنة ١٤٠١، ١٩٨١، تأويل مختلف الحديث لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق/ محمد الزهري النجار صـ٢٧١، ٢٧٢، طبع دار الجيل، بيروت سنة ١٤٠١، ١٩٨١، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، تحقيق/ عبد الله بن الصديق جـ٧ صـ١٢٨-١٢٩، طبع وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، مشكل الحديث وبيانه للإمام أبي بكر بن فورك، تحقيق/ موسى محمد علي صـ٢٨٠-٢٨١، مطبعة دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

(2) أبو إسماعيل الأنصاري: الإمام القدوة الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، شيخ خراسان، من ذرية صاحب النبي أبي أيوب الأنصاري، ولد سنة ٣٩٦هـ.

قال الذهبي: كان يدري الكلام على مذهب الأشعري، وكان شيخ الإسلام أثريًّا، وكان عالمًا بحار في جميع العلوم، يقول: إذا ذكرت التفسير فإنما أذكره من مائة وسبعين تفسيرًا، له: ذم الكلام، ومنازل السائرين، والفارق في الصفات، والأربعين في التوحيد وغيرهم... وقد امتحن وأوذي ونفي من بلده، ينظر: سير (١٨/ ٥٠٣)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٨٣، ١١٩١)، طبقات الحنابلة (٢/ ٢٤٧/ ٢٤٨).

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ، هو على عرشه، وعلمه في كل مكان، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله، وأسند عبد الرحمن بن أبي حاتم، قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه، بلا كيف، أحاط بكل شيء علمًا[1].

ثم قال القاسمي بعد أن ساق جميع أقوال العلماء السابقين مبينًا كثرة نقوله عن هؤلاء جميعهم: وإنما أشبعنا الكلام في هذا المقام؛ لأنه من أصول العقائد الدينية، ومهمات المسائل التوحيدية، وقد كثر فيه تعارك الآراء، وتصادم الأهواء، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء، بل اجتهدوا في إيرادات التمحلات التي تأباها فطرة الله أشد الإباء، فبقت نفوس أنصار السنة المحققين مائلة إلى مذهب السلف الصالحين، فإن الأئمة منهم، كان عَقْدهم ما بيناه فلا تكن من الممترين والحمد لله رب العالمين[2].

المثال الثاني: صفة المجيء والإتيان:

قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، في تفسير هذه الآية نجد القاسمي -رحمه الله- بعد أن انتهى من تفسيرها يذكر تنبيهات منها: وصفه تعالى بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما، مما وصف به نفسه في كتابه أو صح عن رسوله ﷺ، والقول في جميع ذلك من جنس واحد، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها: إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

---

(1) محاسن التأويل جـ٧ صـ٢٧٠٩.

(2) محاسن التأويل جـ٧ صـ٢٧٥٠.

والقول في صفاته، كالقول في ذاته، ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلو سأل سائل: كيف يجيء أو كيف يأتي؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته... فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف..[(١)]، ثم ذكر القاسمي كلامًا لأئمة السلف يبين فيه صحة ما ذهب إليه ولا داعي لذكره؛ لأنه لا يخرج عما ذكره[(٢)].

المثال الثالث: صفة المحبة:

في هذه الصفة نجد القاسمي -رحمه الله- يثبتها كعادته في إثبات جميع الصفات، ولكنه لا يكتفي بإثباتها، بل يردُّ على الزمخشري كلامه في تأويلها، فعند القاسمي لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]. يقول: مذهب السلف في المحبة المسندة له تعالى أنها ثابتة له تعالى بلا كيف، ولا تأويل، ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها... فتأويل مثل الزمخشري لها بإثابته تعالى لهم أحسن الثواب، وتعظيمهم والثناء عليهم، والرضا عنهم تفسير باللازم، منزع كلامي لا سلفي[(٣)]، ثم رد عليه في ادعائه بتأويل محبة العباد لله، وهكذا نجد القاسمي -رحمه الله- في تفسير جميع آيات الصفات يذكر رجحان مذهب السلف وتفنيد ما عداه معتمدًا على ذلك بأقوال الأئمة من القرآن والسنة[(٤)].

---

(1) محاسن التأويل جـ٣ صـ٥١٨.

(2) المرجع السابق جـ٣ من صـ٥١٨، ٥٢٠.

(3) ينظر في ذلك محاسن التأويل للقاسمي جـ٦ صـ٢٠٣٧، ٢٠٣٨.

(4) ينظر في ذلك تفسير قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا» محاسن التأويل جـ٧ صـ٢٧٢١، وتفسيره لقوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا» محاسن التأويل جـ١٧ =

ولكن قد يقع الإنسان فيما لا يرجوه، فعند تفسير القاسمي لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص: ٧٥]، نجده يقول: أي بنفسي من غير توسط كأب وأم[١]، وهو بتفسيره هذا لم يجر النص على ظاهره كعادته في جميع آيات الصفات.

وقد تلقف هذا التفسير الشيخ الكوثري ليثبت به دعواه بأن من سلف المتأخرين -القاسمي- مُؤَوِّل، ليؤيد مشروعية التأويل[٢].

وأرى أن القاسمي في هذه الآية لم يقصد تأويلاً لليد، وإنما شغل بشيء آخر مهم، وهو نفي أن يكون آدم مخلوق بواسطة أب أو أم، فصرف همه إلى نفي ذلك، ومما يدل على عدم تأويله لصفة اليد في مواضع أخرى من تفسيره، ورده على من أولها، نكتفي من ذلك بما قاله عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾ [المائدة: ٦٤]، يقول: ما زعمه الزمخشري ومن تابعه أن إثبات اليد لا يصح حقيقة له تعالى، فإنها نزعة كلامية اعتزالية، واستدل على ذلك بما قاله ابن عبد البر في (شرح الموطأ): أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدُّون فيه صورة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية كالمعتزلة كلها والخوارج فكلهم يذكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعم أن من أقر بها شبة، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، ولحق فيما قاله القائلون بما نطق

=

صـ٦١٥٤، ٦١٥٥، وتفسيره لقوله تعالى: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم» محاسن التأويل جـ١٥ صـ٥٤٠١.

(1) محاسن التأويل جـ١٤ صـ٥١٢٢.

(2) ينظر ذلك في دفع شبه التشبيه بأكف التنـزيه، تأليف/ عبد الرحمن الجوزي، تحقيق/ محمد زاهر الكوثري، مراجعة د/ أحمد حجازي السقا، طبع الكليات الأزهرية القاهرة سنة ١٤١٢، ١٩٩١، هامش صـ١٤.

به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة[١]، ولم يكتف القاسمي بهذا القول، بل ذكر أيضًا قول الإمام أبي يعلى، والإمام أبي الحسن الأشعري، وابن تيمية، وأبي بكر الباقلاني[٢] في إثبات جميع هذه الصفات[٣].

تعقيب:

ظهر لي بعد عرض هذه المسألة الآتي:

أ- إن الكلام في الصفات كما يراه القاسمي فرع عن الكلام في الذات يحتذى فيها حذو الذات، فكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك الصفات، فكما أن الذات منزهة عن التشبيه والتمثيل والتكييف فكذلك الصفات.

ب- إن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بصفات يتصف بها البشر من قدرة، وإرادة، وسمع، وعلم، وبصر، وكلام، ويد، وعين، ووصف نفسه أنه الأول والآخر، وقد وصف بعض المخلوقين بذلك[٤]، ووصف نفسه أنه واحد، ووصف بعض المخلوقين بذلك[٥] إلى غير ذلك من الصفات من علو، وعظم، وملك، وجبار، ومتكبر، وعزيز، وقوي، وغفور، ورحيم، وحليم، وقد

(1) لمعرفة أقوال هؤلاء العلماء ينظر محاسن التأويل جـ٦ صـ٢٠٥٨-٢٠٦١.

(2) أبو بكر الباقلاني: هو الإمام العلامة، أوحد المتكلمين، مقدم الأصوليين القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، صاحب التصانيف، كان يضرب به المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقة إمامًا، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية وانتصر لطريقة الأشعري، قال القاضي عياض: الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن، مات في ذي القعدة سنة ١٤٣هـ، وكانت جنازته مشهودة، ينظر: سير (١٧/ ١٩٠)، تاريخ بغداد (٥/ ٣٧٩).

(3) لمعرفة أقوال هؤلاء العلماء ينظر محاسن التأويل جـ٦ صـ٢٠٥٨-٢٠٦١.

(4) كما في قوله تعالى: «ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين» [المرسلات: ١٦، ١٧].

(5) كما في قوله تعالى: «يسقى بماء واحد» [الرعد: ٤].

وصف المولى ﷻ بها بعضًا من مخلوقاته، وكل ذلك أثبته الكتاب الكريم وهو حق، فلله جميع الصفات اللائقة بجلاله وكماله، كما أن للمخلوق أيضًا هذه الصفات مناسبة لحالة من فقره وفنائه وعجزه وجهله(١).

جـ- يستحيل في حقه تعالى أن يصف نفسه بما يلزمه نقص، فإنه سبحانه وتعالى لا يصف نفسه إلا بوصف بالغ في الشرف والعلو والكمال مع قطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات خلقه(٢) على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

د- ما سبق هو مذهب السلف والقاسمي في هذه المسألة رجح مذهب السلف وأتى بالأدلة والبراهين على أن مذهبهم هو أعدل المذاهب، وهو في ذلك غير مشبه ولا فجسم وليس أدل على هذا ما ذكره فى تفسيره للآيات الدالة على الصفات وهو فى ذلك متبع لمتقدمي الأشاعرة.

هـ- قد يقول قائل: إن السلف أولوا تأويلاً إجماليًّا، وبهذا يكونوا قد اتفقوا مع الخلف في أصل التأويل فيرد عليه بأن: التأويل فى اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث مرادهم به معنى التفسير والبيان... وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره(٣) وشتان بين معنى التأويل عند كل منهما.

وبهذا ظهر لي أن مذهب السلف هو أعدل المذاهب كما قال القاسمي، إذ أنه هو الحق الذي عليه أهل السنة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين

(1) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات صـ٧، ٨، ٩ بتصرف.

(2) والمرجع السابق صـ٣١.

(3) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم الجوزية جـ١ صـ٢٣، ويراجع هذا البحث كاملاً في تحفة الإخوان في صفات الرحمن، إعداد الدكتور/ أبو الهمام محمد بن محمد بن عبد العليم صـ٣٠- ٧٤، نشر مكتبة الصحوة الإسلامية.

ومن تبعهم بإحسان من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ مع تنـزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين[1].

(1) لبيان مذهب السلف ينظر:

- كتاب الصفات، تأليف الإمام أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، تحقيق الدكتور/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي صـ٦٣، طبع ونشر دار إحياء السنة النبوية.

- وينظر في ذلك كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ، تأليف/ محمد بن إسحاق بن خزيمة، مراجعة الدكتور/ محمد خليل هراس صـ١٠، ١١، طبعة دار الجيل، بيروت، لبنان، ومكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

- وكتاب التحف في مذاهب السلف للشوكاني صـ٤٧، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، دراسة وتحقيق د/ ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع صـ١٦١، ١٦٢، طبع دار العاصمة للنشر والتوزيع بالسعودية ط١ سنة ١٤١٥هـ.

- وكتاب «منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين» تأليف الدكتور/ مصطفى حلمي صـ١٨٩-١٩٩، طبع ونشر دار الدعوة، ط الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

- وعلم الكلام على مذهب أهل السنة والجماعة لابن حزم الأندلسي، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا صـ٧٣، ٧٤، نشر المكتب الثقافي ط١٩٨٩م.

- والتوحيد الخالص د/ عبد الحليم محمود صـ١٣٩-١٤٣، مطبعة حسان نشر دار الكتب الحديثة.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الخامس

صفة الكلام

ويشتمل على:

١- تمهيد.

٢- آراء أشهر الفرق الكلامية في صفة الكلام.

٣- رأي القاسمي في صفة الكلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

صفة الكلام من أشهر الصفات التي دار حولها الجدل والنزاع في علم الكلام، بل إنها من أسباب تسمية هذا العلم بعلم الكلام[١]، ونظرًا لاتساع هوة الجدل بسببها فقد عاش الناس في زمن بعض خلفاء الدولة العباسية -المأمون[٢] ثم المعتصم[٣] والواثق[٤]- فتنة كبرى عذب فيها بعض أهل الحق كالإمام أحمد ابن حنبل[٥]، .....

(1) شرح العقائد النسفية صـ١٠.

(2) المأمون: الخليفة أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، ولد سنة سبعين ومائة، قرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، ودعا إلى القول بخلق القرآن، وكان عالمًا فصيحًا مفوهًا، بويع للخلافة بعد مقتل أخيه الأمين، توفي في ١٢ من رجب سنة ٢١٨ وله ٤٨ سنة، ينظر: سير (١٠/ ٢٧٢-٢٨٩)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٨).

(3) المعتصم: الخليفة أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن منصور العباس، ولد سنة ١٨٠هـ، بويع بعهد من المأمون في ١٨ رجب سنة ٢١٨هـ، امتحن الناس في خلق القرآن، قال إسحاق المصعبي: والله ما رأيت مثل المعتصم رجلاً، لقد رأيته يملي كتابًا ويقرأ كتابًا ويعقد بيده، وإنه لينشد شعرًا يتمثل به، توفي يوم الخميس ١١ ربيع الأول سنة ٢٢٧، ينظر: سير (١٠/ ٢٩٠-٣٠٦)، شذرات الذهب (٢/ ٦٣، ٦٤)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٢).

(4) الواثق: هو الخليفة أبو جعفر وأبو القاسم هارون بن المعتصم بالله بن أبي إسحاق محمد ابن هارون الرشيد أمه رومية اسمها قراطيس، أدركت خلافته، ولد سنة ١٩٦هـ، ولي الأمر بعد أبيه سنة ٢٢٧، وكان يقول بخلق القرآن ثم تاب منه، قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى الطالبين ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير، توفي بسامر لست بقين من ذي الحجة سنة ٢٣٢، وكانت خلافته خمس سنين ونصف.
ينظر: سير (١٠/ ٣٠٦)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢١٥).

(5) سبق ترجمته صـ١١٥.

ومات البعض كمحمد بن نوح[١]، بل إنها كانت سببًا في تكفير بعض علماء الكلام لبعضهم، ومحورًا لتبادل السباب بينهم، وكان ذلك لتعصب كل ذي رأي لرأيه، الذي راح يعضدِّه بالأدلة التي استمال بها بعض الناس لصفِّه، لهذا رأيت أن أفردها بالبحث موضحًا لرأي القاسمي فيها، وهل هو صاحب وجهة نظر خاصة فيها، أم أنه موافق لأحد المذاهب، ومن الجدير بالذكر أن القاسمي لما تعرض لتأويل قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، أظهر اعتناء بهذه الصفة حتى قال: إنها من أعظم مسائل الدين، وقد تحيرت فيها آراء أهل الأهواء من المتقدمين والمتأخرين، واضطربت فيها الأقوال، وكثرت بسببها الأهوال وأثارت فتنًا، وجلبت محنًا، وكم سجنت إمامًا وبكَّت أقوامًا، وتشعبت فيها المذاهب، واختلف فيها المشارب[٢].

ويرى بعض المحققين بأن السبب المباشر لظهور القول بخلق القرآن هو: أن النصارى يقول فريق منهم: إن الله ظهر في الجسد -وهم الأرثوذكس-، ويقول فريق منهم: إن الله غيرُ المسيح وهما غير الروح القدس -وهم الكاثوليك والبروستانت-، ويلقبون المسيح بلقب «كلمة الله» القديمة أو صفة علم الله القديم، ثم إنهم لما سمعوا أن القرآن يكفرهم جميعًا وسمعوا أيضًا: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾ [النساء: ١٧١]، قالوا للمسلمين: إن لم تسلِّموا بتفسيرنا للكلمة يلزمكم التناقض في القرآن، فإنه عبر بالكلمة كما نعتقد، فـ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾

(1) محمد بن نوح: الإمام الحافظ الثبت أبو الحسن الجنديسابوري الفارسي نزيل بغداد، وثقه الدارقطني، وقال: ما رأيت كتبًا أصح من كتبه، ينظر: تاريخ ابن عساكر (١٦/ ٣٢/ أ- ٣٣/ أ) السير (١٥/ ٣٤، ٣٥)، تذكرة الحفاظ: (٣/ ٨٢٦).

(2) محاسن التأويل جـ٥ صـ١٧٢٣، ١٧٢٤.

هي السبب لظهور مشكلة خلق القرآن[١].

– لذا أردت أن أبين آراء الفرق الكلامية في هذه المسألة موضحًا ما استند إليه كل مذهب ثم عقبته برأي القاسمي.

١- المعتزلة:

اتفقت المعتزلة بجميع فرقها على أن الكلام صفة لله تعالى خلقها الله في غيره لعدم قيام الحوادث به وبعضهم لم يثبت الكلام لله تعالى أصلاً كالإسكافي، وعباد بن سليمان وأنكرت هذه الفرقة كون الله تعالى متكلمًا في الأزل، وقالت بعض فرقها: بأن كلام الله جسم، وهو صوت مؤلف من ألفاظ وحرف، وبعضهم أبى ذلك، وقال: بأنه عرض[٢]، وقد قالوا: أن القرآن كلام الله تعالى مخلوق، وهو حادث؛ لأننا لو قلنا أن القرآن قديم، وهو يحتوي على أوامر، لم يكن لهذه الأوامر من قيمة ولا تستحق أن توصف بالقدم، ما دام أنه لم يكن هناك مأمور يأتمر بها، وأنه لو كان قديمًا لاستوت نسبته إلى جميع المتعلقات بمعنى

(1) مقدمة كتاب «خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة» للرازي، تحقيق/ أحمد حجازي السقا صـ١٧، نشر المكتب الثقافي ط١ سنة ١٩٨٩م، تاريخ الملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ط١، الطبعة الحسينية بالقاهرة جـ١٠ صـ٢٨٨.

(2) لبيان مذهب المعتزلة ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، تحقيق د/ محمد إبراهيم نصر، د/ عبد الرحمن عميرة جـ٣ صـ١١، نشر دار الجيل بيروت لبنان، وشرح العقيدة الطحاوية لعلي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٧، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر جـ١ صـ١٧٢، والفرق بين الفرق صـ١١٤، والأنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لأبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق، محمد زاهر الكوثري صـ٧٠، الطبعة الثالثة سنة ١٤١٣هـ، سنة ١٩٩٣، نشر مكتبة الخانجي والبرهان صـ٢٦، صـ٢٧، ومقالات الإسلاميين للأشعري جـ١ صـ٢٦٣، صـ٢٦٧.

أن يكون؟؟ كلامًا واحدًا إلى كل الرسل مثلاً، فتكون التوراة هي الإنجيل هو القرآن، وهذا باطل[١]، وقد استدلوا على زعمهم بخلق القرآن بأدلة من القرآن، منها قوله تعالى:

أ- ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، فقالوا: بأن قوله: «محدث»؛ أي: مخلوق.

ب- ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦]، فقالوا: بأن القرآن شيء وهو داخل في هذا العموم، إذن فهو مخلوق.

جـ- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، فقالوا: بأن «جعل» بمعنى «خلق» بدليل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

د- ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١]، قالوا: بأن ما يغير وما يبدل فهو مخلوق.

هـ- ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٨٦]، قالوا: ما جاز عليه الذهاب والعدم فهو مخلوق، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي استندوا إليها، وكلها تدور على تأويل الآيات وفق مذهبهم.

وقولهم هذا مردود من أصله، إذ أن العلماء قد تصدوا لهذه الأدلة وفندوها دليلاً دليلاً، ونكتفي بالرد على دليل واحد وهو الدليل الثالث لهم حيث قالوا: بأن جعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] بمعنى: خلق، ويمكن الرد عليهم بثلاثة وجوه[٢]:

---

(1) ينظر شرح المواقف، الموقف الخامس صـ١٥٣، ومقدمة مناهج الأدلة في عقائد الملة د/ محمود قاسم صـ٦٥.

(2) لزيادة بيان الأدلة ينظر: الأنصاف صـ٧٠-٨٠، وشرح المواقف، الموقف الخامس صـ١٥٤-١٥٦.

الأول: أن المراد من الآية: «إننا سميناه» فالجعل بمعنى التسمية لورود ذلك في القرآن كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩١]؛ أي: سموه، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، فلا يتصور في هذه الآيات أن تكون جعل بمعنى خلق، بل تدور حول الحكم والتسمية.

الثاني: المراد بالجعل في الآية: إنا جعلنا التلاوة له والقراءة باللسان العربي وأفهمنا أحكامه والفائدة من ذلك هي التفريق بينه وبين غيره الكتب السماوية، فلم يكن بالعبرية مثلاً كالإنجيل.

الثالث: بالاحتكام إلى قواعد اللغة العربية واستعمالاتها نجد أن «جعل» إذا عُدِّي إلى مفعول واحد كان بمعنى الخلق، وإذا عُدِّي إلى مفعولين كان بمعنى الحكم والتسمية، وفي هذه الآية التي معنا نجد أن جعل تعدت إلى مفعولين(١)، وفي ذلك يقول القاسمي في معرض الرد عليهم عند حديثه عن هذا الدليل ما نصه «التفريع بالكلية إنما يصح في مادة: جعل، بمعنى: خلق كآية: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، لا في جعل بمعنى: صير، ففرق بين المعنيين الخلق والتصيير، فكما ورد في التنزيل: جعل، بمعنى: خلق، فقد ورد: جعل، بمعنى صيَّر، ومنه آية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]؛ أي: صيره قرآنًا عربيًّا، وأنزله بلغة العرب ولسانها، ولم يصيره أعجميًّا فينزله بلغة العجم، ومنه آيات: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، و﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، و﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وأمثالها مما الجعل فيه بمعنى التصيير

(1) يراجع في ذلك الإنصاف للباقلاني صـ٧٦.

ألبتة»[١].

٢- الكرامية:

هذه الفرقة كعادتها لا ترى مانعًا من حلول الحوادث بذاته تعالى، وهم لما رأوا المخالفة التي ارتكبها المعتزلة في حق العرف واللغة في استدلالهم على خلق القرآن، أرادوا أن يتجنبوا هذه المخالفة فقالوا: بأن كلامه تعالى صفة له، مؤلفة من أصوات وحروف حادثة قائمة بذاته تعالى[٢]، وأن ذاته تعالى بها كثير من الحوادث منها الكتب السماوية[٣]، ومنهم من يقول: بأن كلامه تعالى حادث النوع؛ أي: أنه تعالى أصبح متكلمًا بعد أن لم يكن[٤]، وورد عنهم أنه تعالى لم يزل متكلمًا؛ أي: قادرًا على الكلام وقائلاً؛ أي: قادرًا على القول، والكلام قديم، والقول حادث[٥]، والقرآن عندهم قوله الله وليس بكلام الله[٦].

ومذهب هذه الفرقة مردود من أصله، فهم لما أرادوا تجنب المخالفة التي وقع فيها المعتزلة أوقعوا أنفسهم في شر مستطير، وراحوا يدعون أن كلامه تعالى

(1) تاريخ الجهمية والمعتزلة هامش صـ٦٦، وينظر أيضًا لزيادة التوضيح كتاب «الحيدة وانتصار المنهج السلفي» لعبد العزيز بن يحيى الكناني، نشر مكتبة التوعية الإسلامية صـ٤٩، و«التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» لمحمد بن أحمد الملطي الشافعي، تحقيق/ محمد زاهر الكوثري صـ١٢٩، ١٣٠، نشر المكتبة الأزهرية سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(2) محاسن التأويل جـ١١ صـ٤٢٤٥.

(3) السابق جـ١ صـ١٠١.

(4) منهاج السنة النبوية لابن تيمية جـ١ صـ٢٢٢، ٢٢٣.

(5) الفرق بين الفرق صـ٢١٩.

(6) العقيدة الإسلامية والأخلاق، تأليف د/ محي الدين الصافي، د/ علي معبد الفرغلي، د/ صلاح عبد العليم، د/ محمد عبد الفضيل صـ٩٢، نشر جامعة الأزهر سنة ١٤١٣، ١٩٩٢.

مؤلف من أصوات وحروف حادثة قائمة بذاته تعالى، وكيف للحوادث أن تحل بذات الله تعالى وأن تقوم بها؟ والكلام صفة من الصفات التي تدل على الكمال والجلال، ولو سلمنا بأنها حادثة كما تدعون للزم أن تكون ذاته تعالى قبلها على حالة من النقص لخلوها عنها، وهذا محال، فثبت قدم هذه الصفة، وأن ذات الله تعالى ليست محلاً للحوادث(١).

٣- الأشاعرة:

ذهب الأشاعرة إلى أن كلام الله تعالى قديم، غير مخلوق، وهو صفة قائمة بذاته تعالى، واستدل على ذلك بأدلة كثيرة منها:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥]، وأمر الله هو كلامه.

ب- قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والخلق هو كل ما خلقه الله، ولو كان الأمر مخلوقًا لما عطفه على الخلق، إذ العطف يقتضي المغايرة.

جـ- ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]؛ أي: من قبل أن يخلق ومن بعد ذلك، وهذا يدل على أن الأمر غير مخلوق، ثم استدل على أن الكلام قائم بذاته تعالى بأدلة أيضًا منها قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فتأكيد الكلام بالمصدر يقتضي أن يكون الكلام صادر عن المتكلم والمتكلم المراد في الآية هو الله تعالى ولا يمكن أن نقول بأنه حل في غيره(٢).

ثم وصف الأشعري من زعم بأن القرآن مخلوق بأنه من رعاع الناس

---

(1) ينظر في ذلك: الرد على قولهم بجواز حلول الحوادث في الذات كتاب «الأربعين في أصول الدين» للإمام فخر الدين الرازي، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا جـ١ صـ١٧١ سنة ١٩٨٦.

(2) الإبانة صـ١٩، ٢٠، ٢١.

وجها لهم، ولا موقع لقوله وفي ذلك يقول بعد سوقه الكثير من الأدلة: وقد احتججنا لصحة قولنا أن القرآن غير مخلوق من كتاب الله ﷻ وما تضمنه من البرهان، وأوضحه من البيان ولم نجد أحدًا ممن تحمل عنه الآثار وتنقل عنه الأخبار ويأتم به المأتمون من أهل العلم يقول بخلق القرآن(١).

أما المتأخرون من الأشاعرة: فقد فرقوا بين نوعين من الكلام:

أحدهما: الكلام الحقيقي، وهو المعنى القائم بالنفس، القديم قدم الذات، وهو واحد لا يتغير، ولا ينحصر في ألفاظ، وله أقسام اعتبارية بحسب تعلقه، كالاستفهام، والأمر، والنهي، والخبر، والنداء، وهذا الكلام النفسي يختلف عن الإرادة والعلم.

الثاني: الكلام اللفظي، وهو الأصوات والحروف، وهم يتفقون مع المعتزلة في أن هذا النوع حادث وقائم بغير ذاته تعالى ويرون بأن هذا الكلام متغير؛ لأن عباراته تختلف باعتبار الأزمنه والأمكنة والأقوام(٢).

وقد كان دليلهم في إثبات الكلام لله تعالى قائمًا على نفي الكذب عنه، وثبت عندهم ذلك بثلاثة وجوه:

الأول: أن الكذب نقص، والنقص في حقه محال.

---

(1) المرجع السابق صـ٢٩، ويراجع ذلك أيضًا الفهرست لابن النديم ط سنة ١٨٧١، تحقيق/ فلوجل لسك صـ١٨١، إذ ذكر بأن أبي الحسن الأشعري أعلن في المسجد الجامع بالبصرة في يوم الجمعة مناديًا بأعلى صوته: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي أنا فلان ابن فلان... كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع» نقلاً عن كتاب منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين، تأليف د/ مصطفى حلمي صـ١٦٧، دار الدعوة للطباعة والنشر ط٢ سنة ١٤١٣، ١٩٩٢.

(2) شرح المواقف، الموقف الخامس صـ١٤٩، ١٥٠، ١٥٩.

الثاني: لو كان تعالى كاذبًا، لكان هذا الكذب قديمًا ولاستحال عليه الصدق، لكن ثبت قدم الصدق فاستحال عدمه، ويكون اللازم باطل وهو امتناع الصدق عليه.

الثالث: إخبار النبي ﷺ بثبوت الكلام لله تعالى وهو صادق في كلامه كله وذلك معلوم من الدين بالضرورة، بل التواتر عن الأنبياء جميعًا كونه تعالى صادقًا ومتكلمًا[١].

ظهر لي من خلال عرض مذهب الأشاعرة:

١- أن الأشعري ساق حديثه سوقًا واحدًا ولم يفرق بين الكلام النفسي واللفظي، وهو بعينه مذهب الإمام أحمد بن حنبل[٢][٣].

٢- أن التفريق بين الكلام النفسي واللفظي لدى المتأخرين من الأشاعرة يعود إلى سببين:

أ- محاولة التوفيق بين رأيهم ورأي المعتزلة[٤].

ب- فهمهم الخاطئ لكلام الأشعري عند تحقيقه لكلام الله تعالى بأنه هو الكلام النفسي، فقد فهمه الأشاعرة بأن الشيخ يؤيد مدلول اللفظ وحده، وهو

(1) شرح المواقف، الموقف الخامس صـ١٦١، ١٦٢.

(2) ينظر في ذلك: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل، ضمن مجموعة عقائد السلف صـ٧٥-٧٧.

(3) هو أحمد بن حنبل الشيباني، ولد في بغداد سنة ١٦٤ وبها نشأ، كان من تلامذة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وطلب الحديث وحفظ السنة وأخذ الفقه عن الشافعي ومن تلاميذه البخاري ومسلم، تعرض لمحنة خلق القرآن وصبر عليها منذ عهد المأمون حتى المتوكل، توفي في بغداد سنة ٢٤١ ومشى في جنازته خلق لا يحصون، ينظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، تأليف د/ مصطفى السباعي صـ٤٤٢، نشر المكتب الإسلامي ط٤ سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م.

(4) منهج الأشاعرة في العقيدة تأليف د/ سفر الحوالي صـ٢٣، نشر مكتبة العلم.

القديم، أما العبارات فهي حادثة؛ لأنها تسمى كلامًا من ناحية المجاز، وصرحوا بأن هذا هو مذهب الأشعري، لكنه ليس كلامه حقيقة، ونظرًا لما يترتب على هذا الفهم من لوازم فاسدة(١)، وجب حمل كلام الأشعري على أنه أراد به الكلام النفسي واللفظي معًا، وكلاهما قائم بذات الله تعالى، وفي ذلك يقول الجرجاني بعد أن بين الفهم الفاسد لدى المتأخرين ما نصه: فوجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني، فيكون الكلام النفسي عنده أمرًا شاملاً للفظ والمعنى جميعًا قائمًا بذات الله، وهو مكتوب في المصاحف مقروء بالألسن، محفوظ في الصدور، وهو غير الكتابة، والقراءة، والحفظ الحادثة... وهو الذي ذكرناه، وإن كان مخالفًا لما عليه متأخروا أصحابنا إلا أنه بعد التأمل تعرف حقيقته(٢).

٤- مذهب الإمام أحمد بن حنبل:

يعتبر الإمام أحمد بن حنبل أول من أوذي في مسألة خلق القرآن، وهو في جملة كلامه لا يخرج عما عليه سلف الأمة، بل إن رأيه يمثل مذهب السلف في هذه المسألة(٣)، وهو أن القرآن هو الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو قديم غير مخلوق والكلام صفة قديمة قائمة بذاته تعالى وكلامه تعالى يليق بذاته، من غير جوف ولا فم ولا لسان، وهو يرى كفر من قال: بأن القرآن مخلوق(٤).

---

(1) كعدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف، وكعدم المعارضة والتحدي بكلام الله الحقيقي وكعدم كونه المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة، ينظر في ذلك: شرح المواقف، الموقف الخامس صـ١٦٣-١٦٤.

(2) المرجع السابق صـ١٦٤.

(3) ينظر الملل والنحل جـ١ صـ٦٧.

(4) الرد على الزنادقة والجهمية، ضمن مجموعة عقائد السلف صـ٩٩-١٠٤، وترجمة الإمام أحمد، ضمن مجموعة طلائع المسند للإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر صـ٥٩، ٦٠، نشر مكتبة التراث الإسلامي.

والإمام أحمد بن حنبل[١] أمسك بدفة الدفاع عن هذا المذهب، فقد كان له ردود كثيرة على من قالوا بخلق القرآن مثل: جهم بن صفوان[٢]، وكان يعتمد في الرد عليهم على القواعد الصحيحة للغة العربية والفهم السليم للآيات، ونكتفي للتدليل على مذهبه برده على الجهم حينما استدل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، على أن «جعل» بمعنى: خلق.

فرد بأن الجعل في القرآن يَرِدُ بمعنى التسمية، والفعل، والخلق، وغير الخلق، وساق لذلك أمثلة من الكتاب على كل نوع، وهي في الآية بمعنى التسمية[٣].

وقد آثرت الاستدلال بهذه الآية مع سبق الرد عليها عند الكلام على مذهب المعتزلة، وذلك للرد على من ذهب إلى أن الإمام أحمد لم يستطع الرد على من استدل بهذه الآية على خلق القرآن[٤]، ورمى عقلية أمثاله بأنها عقلية عوام، وأجدر بهم أن يقعدوا عن الكلام في مثل هذه المسألة، ويقولوا بأن الكلام فيها من الابتداع كما يقول السلف[٥].

والحق أن هؤلاء جانبوا الصواب في دعواهم بدليل أن الإمام أحمد فند هذا الدليل وغيره من الأدلة الكثيرة ورد عليها ردًّا مقنعًا كان الصواب حليفه فيها، مما ينفي أن تكون عقلية مثل هذا الإمام عقلية عوام، ودعواهم بأنه لم يقل بما قال به السلف، فهو مردود بقول الشهرستاني[٦]: أجمعت السلف على أن

(1) سبق ترجمته صـ١٥٣.

(2) سبق ترجمته صـ١١٦.

(3) الرد على الزنادقة والجهمية صـ٦٩-٧٣.

(4) مثل الدكتور: محمود قاسم، وأحمد أمين.

(5) مقدمة مناهج الأدلة صـ٦٧.

(6) الشهرستاني: الأفضل محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح شيخ أهل

القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال هو مخلوق فهو كافر، ولا نعرف من القرآن إلا ما هو بين أظهرنا فنسمعه ونقرؤه ونكتبه... فنحن نعتقد أن ما بين الدفتين كلام الله أنزله على لسان جبريل عليه السلام فهو المكتوب في المصاحف، وهو في اللوح المحفوظ وهو الذي يسمعه المؤمنون في الجنة من الباري تعالى بغير حجاب ولا واسطة، وذلك معنى قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨]، وهو قوله تعالى لموسى: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠][(١)].

ولقد وجدت نصًّا من الإمام أحمد ذكره ابن قيم الجوزية[(٢)] عن إبراهيم الحربي[(٣)] يقول: كنت جالسًا عند أحمد بن حنبل إذ جاءه رجل فقال: يا أبا عبد

=

الكلام والحكمة، كان كثير المحفوظ قوي الفهم مليح الوعظ، عالمًا كيسًا متفننًا، برع في الفقه والأصول، وله كتب كثيرة منها: نهاية الإقدام، والملل والنحل، مات سنة ٥٤٩هـ، ينظر السير جـ ٢٠ / صـ٢٨٦، طبقات السبكي جـ٦ صـ١٢٨، وفيات الأعيان جـ٤ صـ٢٧٣.

(1) الملل والنحل صـ٩٧.

(2) ابن قيم الجوزية: هو الإمام الحافظ الفقيه الأصولي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المشهور بابن القيم، نسبة إلى المدرسة التي أنشأها أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، نشأ في بيت علم وفضل، ولازم ابن تيمية حتى عرف بأنه من أشهر تلاميذه والذاب عن مذهبه، ألف وحرر في جميع العلوم والفنون.

توفي ليلة الخميس ٢٣رجب سنة ٧٥١هـ، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، ينظر: ذيل طبقات الحنابلة جـ٢ صـ٤٤٧، البداية والنهاية جـ١٤ صـ٢٣٤، شذرات الذهب جـ٦ صـ١٦٨.

(3) إبراهيم الحربي: هو الشيخ الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحربي، صاحب التصانيف، مولده في سنة ثمان وتسعين ومائة، قال إسماعيل القاضي: إبراهيم جبل نفخ فيه الروح، توفي سنة خمس

=

الله، إن عندنا قومًا يقولون: إن ألفاظهم بالقرآن مخلوقة، قال أبو عبد الله: يتوجه العبد لله بالقرآن بخمسة أوجه، وهو فيها غير مخلوق: حفظ بقلب، وتلاوة بلسان، وسمع بأذن، ونظرة ببصر، وخط بيد، فالقلب مخلوق، والمحفوظ غير مخلوق، والتلاوة مخلوقة، والمتلو غير مخلوق، والسمع مخلوق، والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق، والمنظور إليه غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، والمكتوب غير مخلوق[١].

رأي القاسمي في صفة الكلام:

مذهب القاسمي في هذه المسألة لا يختلف عن مذهبه في الصفات عمومًا، وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، وهو بعينه هو مذهب السلف الذي يراه القاسمي دائمًا بأنه هو الصواب، وفي ذلك يقول القاسمي في إثباته لهذه الصفة: والصواب في هذا الباب وغيره هو مذهب سلف الأمة وأئمتها، وأنه سبحانه لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأن كلماته لا نهاية لها، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم، وقدرته لا تماثل قدرتهم، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته[٢]، فالقاسمي أثبت هذه الصفة قياسًا على صفتي العلم والقدرة.

ولم يكتفِ القاسمي بذلك، بل أبطل ما ذهبت إليه الطوائف الأخرى،

=

وثمانين ومائتين، وكانت جنازته مشهورة.

ينظر: سير جـ١٣ صـ٣٥٦، تاريخ بغداد جـ٦ صـ٢٨-٤٠، المنتظم جـ٦ صـ٣-٧، فوات الوفيات جـ١ صـ١٤-١٧.

(1) مختصر الصواعق المرسلة جـ٢ صـ٤٩١.

(2) محاسن التأويل جـ١١ صـ٤١٢٢.

وهو في هذا لا يختلف عن أئمة السلف كالإمام أحمد وابن تيمية وابن القيم، بل إن كلامه في معظم مسائل الصفات معتمد على كتاباتهم[١].

أدلة القاسمي على مذهبه:

أ- قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: خاطبه من غير واسطة ملك[٢].

ب- قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه كما كلم موسى[٣].

جـ- قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]؛ أي: القرآن الذي نقرؤه عليه ويتدبره، ومطَّلع على حقيقة الأمر وتقوم حجة الله به[٤]، وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤]؛ أي: خاطبه مخاطبة من غير واسطة، وأنه سمع كلامه تعالى بلا شك فأفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر[٥].

وبهذا يكون القاسمي -رحمه الله- متبعًا بإقراره لمذهب السلف وتعضيده بالأدلة الظاهرة، وإن كان أخذها عن غيره من علماء السلف مما يدل على ثقته الكبيرة فيهم، وله الحق في ذلك وإلا فمن أي شيء نأخذ عقديتنا إن لم نأخذها من الكتاب والسنة والعلماء الثقات العاملين بهما والمستنيرين بالعلم الذي فيهما؟

تعقيب:

ظهر لي من خلال عرض هذه المسألة أمور منها:

أ- أن مسألة خلق القرآن كانت محنة كبرى أشعلها ابن أبي داؤد

(1) المرجع السابق جـ٥ صـ١٧٢٣ إلى صـ١٧٥٢، جـ١١ صـ٤٢٤٥ إلى صـ٤٢٤٨.
(2) محاسن التأويل جـ٧ صـ٢٨٥٠.
(3) محاسن التأويل جـ١١ صـ٥٢٥٤.
(4) محاسن التأويل جـ٨ صـ٣٠٧٧.
(5) محاسن التأويل جـ٥ صـ١٧٢٣.

المعتزلي[١].

ب- أرجع بعض المتكلمين -كالماتريدي- الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة إلى اللفظ، فالمعتزلة نظروا إلى ناحية اللفظ والأشاعرة نظروا إلى المعنى[٢].

جـ- دلت النصوص النبوية على أن الله تعالى تكلم بالقرآن على الحقيقة حروفه ومعانيه، تكلم بصوته وأسمعه من شاء من ملائكته، وليس هذا القرآن العربي مخلوقًا من جملة المخلوقات، وأما أصوات العباد، وقراءتهم، وتلاوهم وما قام بهم من أفعالهم وتلفظهم بالقرآن وكتابتهم له فهي مخلوقاته[٣].

د- اعتماد المذاهب القائلة بالخلق، وبالحدوث بالنسبة للكلام، على تأويل النصوص القرآنية خطر عظيم؛ لأن دفعها إلى غير محلها يعتبر دفعًا للرسالة كلها، ولو قيل فيها بأنها مجاز لكان الوحي كله مجازًا، ولم الإرهاق والتعب في صرف الظاهر الواضح إلى غير الواضح؟![٤]

هـ- مذهب السلف في هذه المسألة هو الصواب؛ لاعتماده على الفهم الدقيق لألفاظ القرآن الكريم، ولذا فالقاسمي محق في تأييد هذا المذهب الذي

---

(1) ابن أبي دؤاد المعتزلي: هو أحمد بن أبي دؤاد، واسمه الفرج المعتزلي، ولي قضاء القضاة للمعتصم ثم الموثق، وكان موصوفًا بالجود والسخاء وحسن الخلق، ووفور الأدب، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يُرى في الآخرة، وقد كان هلاكه في يوم السبت لسبع بقين من المحرم سنة ٢٤٠هـ، وولادته كانت في سنة ١٦٠هـ، ينظر: البداية والنهاية المجلد الخامس صـ٨٧٠.

(2) مقدمة مناهج الأدلة د/ محمود قاسم صـ٧٢.

(3) مختصر الصواعق المرسلة جـ٢ صـ٤٩٠ بتصرف.

(4) المرجع السابق جـ٢ صـ٤٧٩.

قاله به أئمة العلماء من المحدثين والفقهاء وبعض المتكلمين[١].

و- الخلاف في هذه المسألة لا يوجب الحكم بتكفير من قال «بخلق القرآن»؛ لأن هؤلاء يُقرون بالشهادتين ويصلون صلاتنا وأحسن به من قول ذهب إليه الغزالي حين قال: كف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه[٢].

ز- أميل إلى ما ذهب إليه د/ عبد الكريم عثمان من أن المعتزلة سجلوا بموقفهم في هذه المسألة ومحاولتهم أخذ الناس بالعنف على القول برأيهم أسوأ مثال على التدخل في الحرية الفكرية مع أنهم روادها الأوائل[٣].

---

(1) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تأليف/ حافظ بن أحمد حكيمي جـ١ صـ١٤٩-١٥٦ نشر دار حميد، وشرح المواقف الموقف الخامس صـ١٦٣-١٦٤.

(2) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي، تحقيق د/ سليمان دنيا صـ١٩٥، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ط١ سنة ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

(3) شرح الأصول الخمسة، هامش صـ٥٢٧، معالم الثقافة الإسلامية ت د/ عبد الكريم عثمان صـ٣٣٦.